التُّفاحَة لَم تَـكُن فَاسِدَة

التفاحة لم تكن فاسدة
سارة طوبار
الطبعة الأولى 2016
تصميم الغلاف: غادة خليفة
مراجعة لغوية: ياسمين فكري
رقم الإيداع: 2016/8741
الترقيم الدولي: 978-977-6463-52-3

تليفون : 0233830955- 01112750799
إيميل: MAQAM.PUBLISHER@GMAIL.COM
جميع الحقوق محفوظة للناشر

التُّفاحَة لَم تَـكُن فَاسِدَة

قصص

سارة طوبار

مقام
للنشر والتوزيع

امتنان

إلى منى الشيمي، الكاتبة والإنسانة

لولا دعمك وثقتك ما كان هذا الكتاب

وجميلات المدرسة النسوية

عامي معكن أعاد إليّ روحي المعافرة

ورفيقاتي

سماح نصر، إيناس المعصراوي، هيام كامل، وهالة أبو الفتوح

إهداء

إلى الغريبات اللاتي تتحرر أرواحهن كل مساء من صخب التفاصيل المفروضة، من الصمت والكذب، من الوهن والوحدة، من الغربة والغضب، اللاتي يحلقن عاليًا داخل فقاعاتهن الخاصة ساعيات خلف حرياتهن مؤمنات بأن ثمة أشياء مبهجة يمكن أن تحدث، اللاتي إذا حل صباحهن – كعادته غائم رمادي – احتلن عليه وطبعن على قضبانه أيادٍ كثيرة ملونة ملطخة بأحلام الليل.

مقعد وحيد

في مكان ما كان هناك مقعدًا وحيدًا اعتادت أن تذهب إليه لتؤنس وحدته، تمسك بيدها دفترًا صغيرًا تكتب به رسائل لا تعرف لها عنوان، فمنذ أن حل خراب الحرب رحل رفيقها في الونس، تكتب له رسائل قصيرة غير منمقةٍ بخط مرتعش قلق.

"حبيبي لا أعرف إن كنت حرًا حيًا أو غير ذلك، لكنني أستشعر روحك كلما جئت هنا أكتب إليك وأبكيك، هم يعتقدون أنني أبكي خرابًا برائحة الدم حل على بلادنا الخضراء، ولكن غيابك اعتم روحي".

رسالة أخرى كتبت فيها: "لا تخف على مقعدنا، لم يزل شامخًا وحيدًا وسط أكوامٍ من حطامٍ أخلفتها القنابل والصواريخ، أعرف كم كنت تحب لقاءنا هنا، أيام مضت كأنها حلمٌ، كان ذلك المكان محاطًا بأشجارٍ عتيقةٍ طالما حمت بظلالها عشاقًا وحملت بين فروعها طيورًا لطالما غنينا معها، لكنها هربت بعيدًا يا صديقي بعد أن أفزعها صوت القنابل، لا أجيد الغناء وحدي".

تحكي له: "كل يومٍ تأتي الأخبار بالمزيد من أعداد الضحايا والمصابين، تبكيهم أمي، لا تتوقف عن الدعاء لأمهاتهم بالصبر وبالدعاء على كل من كان سببًا في الموت، كُثر هم ولا يموتون".

تقول أمي: "لو كان بإمكاننا أن نرحل؟".

أتذكرك، "الراحلون يا أمي بلا عنوان"، تعنفني قائلة: "هنا لا يعرف عنواننا سوى الموت".

"على أمل عودتك أتشبث بالبقاء".

الكثير من الرسائل، تأنس بالحديث إليه بكتابتها، علّها تعرف له عنوان أو ربما يعود.

ذات صباح دوي انفجارٌ جديدٌ واهتزت أرجاء المدينة وسقطت المزيد من البنايات وتناثر على إثره أوراق دفتر صغير لرسائل بلا عنوان، وبقي بعده المقعد وحيدًا تمامًا بلا ونس.

****

الفرار من كابوس امرأة..

كانت أنا

تزحف على ركبتيها، فأحاول منعها من الوصول لهدفها، أقبض على كفها لتحرير كرة هشة من الشعر الناعم، لكنها تسبقني لسلة القمامة وتُلقي بها، تحاول أن تنظر إليّ بلطف لا أصدقها، كانت تشبهني جدًا لكنها ترتدي حجابًا أسود، أمسكت قلم ألوان أخضر أو لعله أزرق لا أذكر تحديدًا، اقتلعت السن المدبب الملون من الخشب وغرسته في صدري وهي تبتسم، استيقظت مذعورة أبحث عن ونس، أمسكت هاتفي وبحثت على الفيسبوك عن المستيقظين، لكنهم كانوا مشغولين بالركض من كوابيسهم أو فيها، كان الونس في تلك الليلة وحيدًا تمامًا، حاولت التشبث به لكنها غرست أظافرها في رقبتي وهربت من الكابوس معي، تسابقني الركض.

صديقتي غير المرحب بها تصر على زيارتي في الأوقات التي تناسبها، هي تعرف جيدًا ذلك الأثر الذي تخلفه ورائها، يرن هاتف المنزل فأتجاهله، تُقحم نفسها في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ، تُبدي رأيها في كل تفاصيلي، وتنصّب نفسها قاضٍ ومحامٍ وهيئة دفاع.

- "الهاتف يا عزيزتي ألن تجيبي؟ هل أقوم بالرد نيابة عنكِ؟".

أتجه صوب الهاتف بصبر نافد.

على الطرف الآخر كان الصوت هادئًا واثقًا، إنها زميلة زوجي بالعمل، تهاتفه من وقت لآخر حين لا تسمح شبكة الجوال بالتقاط المكالمة، وبعد البداية التقليدية لمكالمات الهاتف بادرتها قبل أن تسأل عنه بأنه ليس بالمنزل، فقالت بثقة: "لا بأس أنا أعلم أين هو، أريدك أنتِ".

استرسلت في حديثها المرتب قائلة: "حدثني زوجكِ كثيرًا عنكِ وعن خصالك الطيبة طوال الوقت، يقول إنك المرأة الحلم بالرغم من أن هذا الوصف يصيبني بالغيرة، نعم الغيرة يا عزيزتي أليس من حقي أن أغير على زوجي؟".

- "عفوًا ماذا قلتِ؟".

أكملت: "لقد تزوجنا وهو لا يستطيع أن يخبرك، ولكن في كل الأحوال كنتِ ستعلمين عاجلاً أو أجلاً، فضلتُ أن أخبرك بنفسي، ربما توصلنا لحل يرضينا جميعا ثم إن ..".

أغلقت الهاتف فلم يعد مهمًا ما تقول، في لحظات تذكّرت إصرار أمي عليه واستسلامي كعادتي لها، ومدحه المبالغ لي "كنسمة لا يشعر بها"، لا أعرف تحديدًا كيف ومتى عدت للواقع، لكنني فجأة وجدتني بين شظايا تتطاير في الهواء ثم تفترش الأرض، كل ما طالته يدي رفعته عاليًا ثم ألقيت به بكل عصبية ليصبح حطامًا، تهشمت مومياتي التي ظننت أنني برعت في تحنيطها طوال سنواتي الثلاثين الماضية، وأذاب غضبي الجليد الذي حفظت به أحلامي ورغباتي، كانت وحدها حاضرة شاهدة على ما حدث وما تلا ذلك من خرابٍ، لكن نظرتها الساخرة التي ارتسمت على شفتيها لم تجعلني أهتم كثيرًا بتلك الشظية التي جرحت وجهها.

****

كنت قد قطعت صلتي بها منذ زمن بعيد، لكنها كانت من وقت لآخر تفرض وجودها وسرعان ما كنت أسيطر على علاقتي بها لتبقى في أضيق الحدود، لكن ظهورها الأخير كان مؤرقًا جدًا، أذكر جيدًا ذلك الصباح الرمادي الممطر الذي طرقت فيه بابي دون موعد، وجدتها في مواجهتي مبللةً وباردةً مثلي.

- سألتها: "كيف كانت سنواتك الماضية؟".

- فأجابت باقتضاب وإصرار: "لم تكن، وعنك؟".

- "كما تعلمين تزوجت ولدي عائلة صغيرة، الأمور على ما يرام".

- "تقصدين الأمور كما يجب لها أن تكون".

كانت غريبة الأطوار، إذا حضرت تثرثر في مواضيعٍ شتى، لا تستقر في مكانٍ ما لمدة طويلة، تروح وتأتي، تلعب بمقتنياتي أو تتجول بالمنزل لا يعجبها نظامه الممل كما تصفه.

- "ألا تشعرين بالملل؟".

- "ليس لدي وقت له، فأنا ما بين عملي وأعمال المنزل وتربية الصغار، لا وقت للملل".

- "ماذا لو استيقظت ذات صباح لا طاقة لكِ بتلك الأعمال؟".

- "هذا لا يحدث أبدًا، أستيقظ كل صباح وأنا أعرف جيدًا ما يجب عليّ فعله فأقوم به كما يجب، ماذا عنكِ؟".

- "سأستقيل قريبًا من عمل لم أحبه قط، لأقيم مشروعًا أفكر به منذ زمن سيجعلني أكثر حريةً وسعادةً من ذي قبل".

- "مجنونة.. هل تستقيلين من عملك الحكومي لتصبحي حرةً أكثر بمشروع لا يضمن لك المستقبل؟!".

تتجاهل تعليقي وتكمل: "وماذا عن أحلامك، طموحك في عملك؟".

أتذكر أمي وهي تنهر زوجي غاضبة: "أجننت؟! هل تعلم كم تمنيت أن تصبح ابنتي طبيبة؟ لا يجب أن تتنازل عن عملها مهما كان".

لم أكن أجرؤ بالطبع حينها أن أخبرها عن رغبتي في دراسة الأدب الإنجليزي، فآثرت الهدوء والتحقت بكلية الطب آنذاك.

ظل الخلاف قائمًا وقتًا؛ أمي تُصر على العمل وزوجي يُصر أن أتفرغ لعائلتي فهم أولى بوقتي ومجهودي، لم أتدخل، لم أشعر أن الأمر يمثل أهمية

بالنسبة لي، فتركته لهما إلى أن توصلا إلى حل وسط: أعمل بنصف دوامٍ، ساعات أقل ومجهود أقل، وأتفرغ باقي اليوم لمتطلبات البيت.

ذات يوم حدثتني أمي لتخبرني بموعد زفاف أحد أقاربنا قالت: "صغيرتي الجميلة ارتدي الفستان البنفسجي إنه يجعلك كالأميرات".

أحاول أن أعترض فأخبرها أن وزني قد زاد مؤخرًا وسيصبح ضيقًا بالتأكيد، فتُلِح علي بنبرة آمرة: "لا أعتقد، إنها فقط أوهامك، سيصبح أجمل".

أمام المرآة أنظر له بأكثر من زاوية، أسأل زوجي عن رأيه فيجيبني دون أن يلتفت لي وهو يتعطر بعطر لا أحبه: "جميل يا عزيزتي، سأنتظرك بالخارج".

أمي تشعر بفخرٍ لا أعرف مصدره؛ هل لأنني فعلت ما تريد أم لأن ابنتها كالأميرات؟ تدور بي على الأقارب والأصدقاء لنُلقي عليهم التحية، أهمس لها "أمي لم أعد صغيرتك العزباء لقد تزوجت ولدي طفلان أنسيتِ؟!".

أنسحب برفق وأعود لطاولتنا لأجد أختي الكبرى هناك ترمقني بنظرة غاضبة تظهر من خلف النقاب الذي أصرت على ارتدائه رغم رفض أمي الشديد، حتى إن الأمر قد تطور وقاطعتها وقتًا، لكنها أبت أن تستسلم لضغوطها.

جذبتني بشدة من يدي وهي تقول بسخرية: "ألم يكن لديك فستان أضيق قليلاً؟"، أشحت بوجهي ناحية أمي ففهمت أنه اختيارها لي، كدراستي وزوجي وعملي وأصدقائي.

فقالت: "لا فائدة ستبقين دميتها التي تشكلها كما تريد".

ثم تحول حديثها لخطبة دينية عن طاعة الأهل فيما لا يغضب الله، ثم خطبة أخرى عن شروط الزي الشرعي، ثم عن كوني قدوة لأطفالي، كانت تلك عادتها كلما التقينا.

انشغلت عن مظاهر الاحتفال بعدم مبالاة زوجي، وزهو أمي بي، وخطب أختي الكبرى، هُيأ لي من بين كل هذا أنها تجلس على طاولة بين الحضور تنظر لي ساخرة وتكرر وصف أختي "دمية".

في زياراتها التالية كانت تضحك باستهزاء وهي تقلد صوت زوجي وطريقته وهو يتحدث عني أمام أصدقائنا: "إنها المرأة الحلم، ليس هناك أجمل من أن تتزوج امرأة مطيعة هادئة راضية لا تجادلك ولا تثير المشاكل، إنها كالنسمة لا تشعر بها أبدًا"، وتكرر الجملة الأخيرة بأكثر من طريقة "كالنسمة لا تشعر بها أبدًا".

في كل مرة كان زوجي يمدحني فيها أمام الآخرين كنت أشعر بالإهانة بالرغم من أنه يثني عليّ بكلمات تبدو طيبة وحقيقية؛ فحين يتحدث عن هدوء البيت وقدرتي على التعامل مع صغارنا أود لو أنني قلت له: "يا عزيزي أنت لا تعود إلى البيت سوى في وقت متأخر وقت نومهم، وفي الأيام القليلة التي تعود فيها نهارًا يكون موعد قيامهم بواجباتهم المدرسية ليس إلا، لكني أبدًا لا أعاتبه ولا أفتقده".

تأتي هي دائمًا لتنتقدني وتوبخني وتقلل من شأن كل ما أقوم به، أمي كانت على حق حين أصرت أن أخرجها من حياتي ونحن صغار، كانت تقول إنها لا تشبهنا، صوتها مرتفع، ضحكتها عالية، ملابسها غير مهندمة، تصرفاتها كالصبيان لا تليق بفتاة، وأكثر ما كان يضايق أمي أنها تجادلها دائمًا؛ فتصفها بأنها غير مهذبة وترد على الكبار، لذا كان عليّ مع الوقت أن أحجم علاقتي بها، حتى أصبحت بعيدة عنها بقدرٍ أراح والدتي.

في زيارة أخرى دون موعد كعادتها لم تكن تلك المتعجرفة الناقدة كما عهدتها، سألتها عن حالها، فاجأتني حين استرسلت في الحديث عن حبيبها الذي تخلت عنه في الماضي بسبب ضعفها، أخبرتني أنها تفتقده وتفكر في البحث عنه، تخاف ألا تجده أو ألا يغفر لها لكنها ستحاول، رحلت يومها سريعًا، ربما ذهبت لتبكيه بعيدًا عني.

"حبيبي كل عام وأنت ونسي ونوري، كل عام وأنت لا يشبهك أحدًا، ربما لن تصلك رسائلي الآن لكني على يقين من أنك ستقرأها جميعها ذات يوم، ستجدني أطرق بابك دون موعد أحمل أزهارًا زرعتها خصيصًا لك، أرويها كل يوم بحكاياتٍ عنك، أقص عليها كل مساء قصصنا الصغيرة التي كانت، فتزهر أكثر ويفوح عطرها وتبتهج فأطمئن لأنها تسمعني، ولهذا أنا أصدق أنك لن تردني يوم أجدك، ستكون أزهاري الصديقة وسيط بيننا لتخبرك بالحنين الذي كان تربتها".

كانت تكتب له الرسائل كلما افتقدته، كان حديثها عنه أصدق ما بيننا، وتوقفت عن توبيخي الدائم، لكنني أخبرتها أنها مجنونة وأنه لا داعٍ للبحث عنه، لأنه ببساطة ربما تزوج ولديه عائلة وحياة كاملة لا تنقصها.

- "ربما أكون مجنونة لكنني بالتأكيد لا أشعر بالملل".

****

أنا الآن لم أعد أشعر بالملل، فبعد أن استقلت من وظيفتي وتوقفت عن ممارسة الطب افتتحت مكتبة صغيرة جعلتني أكثر حريةً وسعادةً، ووقتي بينها وبين صغاري، توقفت أيضًا عن ارتداء الفستان البنفسجي، وأمي تقول إنني مزعجة وسيئة لأنني تركت عملي ورفضت تمامًا أن أنتقل للسكن معها أنا والأطفال، أتجنب لقاء أختي قدر المستطاع فهي لا تتوقف عن ذكر

مساوئ كوني مطلقةً أسكن وحدي، وزوجها كلما قابلني حدثني عن فلان أو عِلان الذي يبحث عن زوجة بنفس ظروفي.

- "عزيزي.. ليس لدي ظروف كل ما في الأمر أنني امرأة حرة وسعيدة تفعل ما تريد".

امرأةٌ لا يضايقها سوى ندبة ما في وجهها.

****

انصهار

23

دائمًا يحتاج الآخرون إلى شروحٍ ومبرراتٍ، لماذا لا يوافق على إجازتي دون الخوض في تفاصيل لا تهمه؟ الحر يزيد من عصبية الجميع وعدم تركيزهم، كل هذا الكم من الناس، كم حكاية تكمن وراء هرولتهم؟ كم حزن يسكن بيوتهم؟ أريد شرفة لا تطل على جثث متراصة تحدق في بأعينٍ خاويةٍ، الشقة الجديدة دور أرضي صغيرة ومؤقتة، لذا لن أشتري سجادة رمادية تجذبني كلما مررت بها، أنا لا أحب اللون الرمادي، يضايقني كم الزجاج الذي أجمعه على فترات متقاربة، متى تتوقف الأطباق والأكواب والزجاجات عن الفرار مني دون انتباه؟ لا أحب السواريه، باقتراب المناسبات العائلية يذكرونني بألا أرتدي بنطالاً، فرح أختي الصغرى خلال الأسبوعين القادمين، أريد الإجازة لأني متزوجة في بلدة غير بلدة عائلتي، لا أقول بلدي فلم أشعر بعد بالانتماء إلى أي مكان، امتحانات الثانوية العامة تجعله لا يوافق على منحنا إجازات، مساكين يسحبون أوراقهم ويرحلون، الإجازات حقنا جميعًا، مديرتي لا تتوقف عن الصراخ لكنها تعاملني بلطف، يشتكون منها طوال الوقت وأشفق عليها، أنا أيضًا لا أتوقف عن الصراخ لكنهم لا يسمعونني، كل الأدوات الكهربائية بها أعطال، كلها بلا استثناء، زميلتي تنصحني بقراءة سورة البقرة في البيت يوميًا، أغنية "مبسوط كتير" تصيبني بالبهجة، أريد أن أشتري زجاجات مياه، سأنسى بالتأكيد، الجو حار جدًا، الصغير يشتت انتباهي كلما اختفى من أمامي لثانيتين، أشفق عليه من كم الأوراق التي عليه أن يوقعها، كيف يعامل بناته بالبيت؟ ربما ليس لديه بنات، وماذا عن زوجته؟ وما دخلك أنتِ؟ أحسبه شخصًا طيبًا يطبق القوانين فحسب، لا يهم كونها ضيقة لن أنتقل إليها كليًا هذا العام، شقة ضيقة بمدينة أبرح من بلدة صغيرة، لا يتوقف الوافدون على مكتبه لإنهاء أعمالهم، الإجازات فقط تبدأ من عنده

وتنتهي عند موظفين أصغر، من أين سأحصل على الماء الآن؟ الصغير لا يتوقف عن طلبه، لا يرفع رأسه لينظر إلينا يوقع أو يعلق ويرفض أو يرسلهم إلى مكاتب أخرى، لن أيأس، أخيرًا يسحب إجازتي الاعتيادية يوقع عليها بنفاد صبر ودون تعليق.

****

تانجو

27

أجلس بجوار أبي وهو يقود سيارتنا الصغيرة شاردًا وحزينًا، بينما تفترسني وحوش أفكاري، كنت أتأرجح ما بين حزني ودهشتي وبين فرحة خبيثة يحتقرها ضميري، كنا للتو قد أودعنا أمي مصحة للأمراض النفسية، لم يكن أمامنا خيارات أخرى بعد أن فقد أبي كل سيطرته عليها.

لا أذكرها إلا وهي غاضبة مني أو عليّ، تنهرني طوال الوقت؛ إذا تأخرت تستقبلني كعادتها وهي تصرخ وتملي عليّ قوانينها التي تنتظرني أن أعمل بها يومًا حتى يرضى الله عنها.

"إيه أخرك لحد دلوقتي؟"، أتباطأ في الرد فتنفجر غاضبة "تانجو تاني مش كده؟"، أهز رأسي موافقة وأتجه لغرفتي هاربة من نوبة الغضب التي أحفظها جيدًا، لا تنسى منها اتهام واحد لا تلقيه على مسامعي بداية من "محدش قادر عليكِ" حتى "اعملي حساب للحجاب اللي على راسك"، الحجاب الذي أصرت هي عليه منذ سنوات، وأخيرًا تختم نوبتها تلك ببكاء حاد وهي تردد "حرام عليكِ هروح جهنم بسببك، أهون عليكِ؟"، اتهامها الأخير يثير جنوني.

أبي صامت دائمًا، يتركها حتى تنهي ثورتها ويمسك بيدها، تستسلم له كطفلة ويختفيا في غرفتهما، فأنعم أخيرًا بالهدوء الذي تلا عاصفة أخرى من عواصفها التي لا تنتهي.

كل ما أفعله تراه أمي جُرمًا وسببًا لدخولها جهنم؛ ثيابي، أصدقائي، خروجي، هواياتي، دراستي للموسيقى، وأخيرًا رقص التانجو كان أكثر ما يثير غضبها، أتردد كثيرًا قبل أن أحدثها عن حبي للرقص وعن فراغ بروحي لا يملأه سواه، هيهات أن تشعر فأؤثر الصمت.

في الأيام الأخيرة زادت نوبات غضبها عليّ وعلى أبي أيضًا وهو صابر صامت يشفق عليها أو يحنو، لم أكن أفهم سر بقائه مع امرأة لا تجيد سوى الصراخ،

لماذا لم يتخل عنها؟ كنت سألتمس له ألف عذر، كنت أنتظر تلك اللحظة التي أتحرر فيها من هذا الجنون المتواصل.

ولعل ذلك الانتظار الطويل هو ما جعل فرحة خبيثة تتسلل إليّ على استحياء، حين وصلنا البيت كان كل شيء على حاله، الأثاث في مكانه المعتاد، مصحف أمي على الطاولة الصغيرة التي تتوسط الصالة، وسجادة الصلاة كما تركتها على ظهر كرسيها المفضل.

بشكل أو بآخر كان كلانا مصدومًا من تلك الحالة التي أصبحت عليها مؤخرًا، حدثني أبي أخيرًا قائلًا: "قتلوها يا بنيتي، قتلوها منذ أن سرقوا روحها"، أحضر ألبومًا للصور لم أره من قبل، ناولني إياه، فتحته صدمني ما به ولم أصدق، كنت ألهث خلف الصور واحدة تلو الأخرى، أبحث عما يطفئ فضول أشعلته صور امرأة تشع ضحكتها نورًا، هُيأ لي أنها ترفرف بجناحين من فرط خفة تظهر بحركاتها وهي ترقص التانجو، نظرت لوالدي أسأله أهي حقًا؟!

أجابني وعيناه تدمعان "كانت يا بنيتي لا تتوقف عن الرقص حتى تسقط تعبًا، فتضحك وهي تخبرني أننا سنرقص حتى الموت، لن يمنعنا حتى الشيب والعجز، نواصل الضحك ونحن نتخيلنا يتعكز كل منا على الآخر أثناء الرقص، إلى أن سرقوا منها سر بهجتها، أقنعوها أن ما تفعله ذنب يستحق التوبة، صبوا فيها كل كذبهم ونفاقهم وملأوها رعبًا من الله.

تنهار بعد كل مشاجرة معكِ، تستمر نوبة نحيبها، وهي تصلي أسمعها تسأل الله أن يرفع عنها ما أوهموها به من أنه غضبه وعقابه بكِ، وتستعيذ من عذاب لا يحدثونها عن الله إلا من خلاله، زهدت كل شيء وأهملت صحتها واستسلمت لجنونها، أحاول أن أقنعها أن الله أكثر رحمةً من رفقائها الذين لا يعرفونه ولكنها تصر على أن لولاهم ما عرفت طريق الله."

أنهى حديثه وقد بللت الدموع وجهه، عرفت أخيرًا سر بقائه معها وصبره عليها، أعدت إليه ألبومه واتجهت لغرفتي وأنا أجيب صديقتي على الهاتف، كانت تعلم ما حل بنا، تخبرني بأن نؤجل موعد التانجو لحين تحسن الظروف، يفاجئها إصراري "سأحضر في الموعد"، أغلق هاتفي، انتقي ملابسي بحرية لم أعتدها وأنظر للمرآة، أخلع عني حجاب أمي وأطلق لشعري حرية الاستمتاع برقص التانجو، أرقص كما لم أرقص من قبل، ومع كل حركة أتحرر من كل خوف حاولت أمي أن تلصقه بي، ووجدتني أستبدل الفرحة الخبيثة بشفقة وبشوق لتلك المرأة التي لم أعرفها يومًا.

****

ربما

ربما يأتي زمنٌ آخر لا أكون فيه المرأة الكابوس، زمن أتوقف فيه عن الغضب والصراخ، أهدأ تمامًا، أستقبل الصباح بسعادة لم أعتدها، أتناول قهوتي بشرفة لا تطل على جثث متراصة تراقبني بدأب.

وربما أقتني عصافير مغردة، هي الآن تزعجني وتسبب فوضى لا طاقة لي بها، قد تتغير مشاعري تجاه الحيوانات الأليفة كلها ويصبح لدي أسماك ملونة وهرة صغيرة وسلحفاة أيضًا... ربما.

أو لعل ذات يوم ينشق سقف الغرفة عن أشعة ضوئية، تسبح فيها كائنات فضائية، سأسمح لهم باختطافي بهدوء دون مقاومة، وعندهم سأستسلم تمامًا لتجاربهم وأصبح فأرتهم المطيعة، لعلي أتحول لامرأة لا تحلم، فقط ترضى، امرأة مؤدبة وعاقلة، وقبل أن أعود سأتذكر جيدًا أن أترك صوتي لديهم حتى لا يزعجكم هنا صراخي المستمر، أو ربما جعلوني عقلة إصبع لا أشغل من الكون سوى حيز صغير جدًا وكلما أردت الهروب اختبأت في علبة كبريت أو ورقة شجر هائمة لا تستدل أبدًا على شجرتها الأم.

أيًا كانت تلك الحالة التي سأكونها المهم ألا تنسى تلك الكائنات الطيبة إرفاق وصيتي معي: "تدفن في مقابر الغرباء ومجهولي الهوية".

****

ساعة واحدة

37

تحاول متابعة أمر ما على الإنترنت، لكنها تخسر كل محاولاتها لإشغال صغيرها عنها، يدور حولها، يقفز فوق أكتافها، تفشل تمامًا في إلهائه، يعلن عن جوعه، فتمسك الهاتف باليد اليسرى لتتابع من خلاله الإنترنت وباليد اليمنى تفتت خبز الفينو في كوب اللبن ثم تطعمه إياه بمعلقة صغيرة.

تتلخص كل أمانيها في ساعةٍ واحدةٍ، تفكر طوال اليوم في طريقة ما تختلس بها تلك الساعة دون أن يزعجها أحد، في الصباح تستيقظ لتبدأ دوامتها اليومية ما بين العمل والبيت، وما إن يحل المساء حتى تصبح منهكة تمامًا فتستسلم للنوم حتى صباح اليوم الآخر.

تكره تلك اللحظة التي تغادر فيها سريرها صباحًا، تماطل فيها قدر كسلها حتى تنهض متأخرة كعادتها، طفلها الصغير بالكاد يقتنع بالذهاب إلى الحضانة، تنتقل سريعًا من المطبخ بعد إعداد الفطور إلى غرفته لتقنعه بالاستيقاظ والاستعداد للخروج معها، تنظر في ساعتها، على وشك أن تتأخر على العمل والصغير لا يستجيب لها، تفكر في كونها غير قادرة على السيطرة "أنا أم فاشلة، لن يكون اعترافي الأول بذلك على الفيسبوك، ستصبح مادة للمزاح بين أصدقائي وأقاربي، بالطبع هذه أمور خاصة لا دخل للأصدقاء بها، فكرة الإنجاب مرة أخرى تصيبني بالهلع، لا أصلح للأمومة، أحب صغيري لكنه يثير جنوني بعنده وإصراره".

يستيقظ أخيرًا، تغير له ملابسه وتحثه على تناول فطوره، تفتح شنطة يدها أكثر من مرة للتأكد من وجود مفاتيح البيت وأنها لا تنسى هاتفها، ثم تعد له حقيبته الصغيرة، تطلب منه وعودًا بألا يثير المشاكل وأن يكون ولدًا مطيعًا، لكنه دائمًا لا يفي.

تغلق خلفها باب البيت وتقف في مواجهة شارع طويل عليها أن تقطعه سيرًا لتستقل مواصلة ما إلى الحضانة ومن ثم إلى العمل، تمر سيارة مسرعة

تخلف وراءها غبارًا يخنقها فتنفضه عن ملابسها وتمسح وجهها بيدها، الغبار يزيد صباحها ضيقًا، ويزيد تطلعها لحياة لا تختنق فيها.

في الحضانة يبكي الولد كثيرًا ويتمسك بوجودها معه وحين لا تجد فائدة من محاورته تتركه للمشرفة وترحل، يخفت صوت بكائه كلما ابتعدت خطواتها كما خفت شغفها مع مرور الوقت، لم يعد لديها وقت ولا جهد لتمارس فعلاً غير الدوران في ساقية العمل والبيت، تتساءل كيف تحولت لتلك المرأة التي كانت تخافها.

تجلس خلف مكتبها، أمامها الكثير من الملفات التي يجب مراجعتها "بعد عشرين أو ثلاثين عامًا سأصبح امرأة بدينة عابسة لا يلتفت أحد إلى وجودي، سأختفي تمامًا خلف كومة من الأوراق والملفات، امراة خالية من الحياة، حينها سيصبح التغير أمرًا جنونيًا وعبئًا لا أحتمله".

تلك الصورة التي رأت نفسها عليها أصابتها بالرعب، قررت ألا تترك نفسها فريسة للروتين وللملل، "سأحاول الكتابة مرة أخرى اليوم، لم أكتب منذ سنوات، ولم أقرأ، كيف تسربت السنوات من بين أحلامي دون أن تسد فجواتها؟ لم أنتبه لمرورها الرتيب، للأيام المتشابهات بليلها ونهارها، بحلوها ومرها، نسخ مكررة مرت كأنها يومًا واحدًا".

أنهت عملها ومرت على الصغير لاصطحابه إلى البيت، اتجهت للمطبخ لتعد الغذاء، ثم غسيل الأواني، مذاكرة الصغير، حاولت أن تنهي كل ما ورائها وهي تفكر ماذا ستكتب؟ الإنهاك بدأ يصيب جسدها، لكنها تذكرت تلك الصورة التي رأت نفسها عليها.

الصغير يجلس بجوارها يلعب بهاتفها، تستغل انشغاله وتفتح اللاب توب، الصفحة البيضاء تستفز بداخلها الكثير من المشاعر المؤرقة، وما إن تبدأ في الكتابة حتى ينتبه لانشغالها عنه فيبدأ بحشر كومة من شعرها في

فمه فتصرخ به فيمسك بنظارتها ويرتديها يسألها هل أبدو وسيمًا؟ فتبتسم لكونه طفلاً لم يكمل الأربع سنوات وينشغل بكونه وسيمًا.

تحاول جاهدة أن تلهيه قليلاً عنها لتعاود الكتابة مرة أخرى، فيغافلها ويفصل الكهرباء عن الحاسب قبل أن تحفظ الملف فيزيد توترها، لكنها تحاول إعادة ما كتبته "التربية ليست بالأمر الهين، كيف يتعامل الآخرون مع أبنائهم؟ يشتكون ثم يكررون فعل الإنجاب مرة تلو الأخرى، بالتأكيد هناك إناث مؤهلات للأمومة وغيرهن لا، رائحة دواء الحديد لا تفارقني، يعذبني في كل مرة يتناوله، الجيران بالطبع يسمعون صراخي طوال اليوم، لا يأكل جيدًا، أخبرنا الطبيب أنه يعاني الأنيميا، وبالطبع أنا السبب، يهدده بالحقن فأضحك لأنه لا يهابها".

لا تستطيع احتمال أكثر من طفل، لكن يتدخل الآخرون دائمًا فيما لا يعنيهم، تقابل تدخلهم بابتسامة لزجة تماثل دعواتهم لها بالحمل ثانية، "أنا لا أريد"، لكنها لا تخبرهم صراحة بذلك، فقط تبدي أسبابًا لها علاقة بعدم قدرتها على التعامل مع شقاوة الصغار.

"لماذا يصبح اعترافنا بحبنا لأنفسنا وحاجاتنا لأوقات مخصصة لنا اتهامًا بالأنانية".

اخفض صوتك يا صغيري، توقف عن تكرار الطلب أكثر من مرة، سمعتك جيدًا، فقط سأدون فكرة ما قبل أن تهرب، فلتهدأ قليلاً.

"أتعجب من الذين يعتقدون أن النساء يجب أن ينصب اهتمامهن حول الأطفال والأسرة وفقط، وما سواهم "كلام فاضي" لا يستحق المعاناة، فقط كل المعاناة والأحلام والأوقات والعمر بأكمله من أجلهم، وهي لا فائض حياة لها".

يردد كل ما يسمعه، تصرخ كلما سمعت منه كلمة تضايقها، لا يجب أن يلام، لكن الكبار الذين يرددون أمامه كلمات سيئة كيف تسيطر عليهم؟ طفل عصبي وعنيد، صفات وراثية، فكيف له أن يكون؟ تريده أن يصبح عازفًا، ستدبر له أمر دروس الموسيقى، فقط لو يذهب الآن.

أخيرًا يذهب إلى غرفة التليفزيون لتهنأ ببعض الهدوء قبل أن تعاود معه من جديد جدلهما الذي لا ينتهي كأنهما طفلان يتشاجران مع بعضهما طوال اليوم.

من قبل لم تكن تأبه بالوقت ولا تنشغل بما فات منه، تفكر دائمًا فيما هو آتٍ، تتخيله أفضل ما يكون، تصدق تمامًا أن زمن ما سيأتي تتحقق فيه الأمنيات، كان الزمن آنذاك به متسع من الوقت، لم يكن الحاضر رائعًا لذلك كان القادم أملها الوحيد، ساعة واحدة فقط تضطر أن تعود فيها لواقعها لتنهي واجباتها المدرسية سريعًا، لتعود تسافر من جديد بأحلامها للزمن القادم، لكن دون أن تنتبه غافلها الزمن ومضى، لم تدرك غايتها، والساعة الواحدة صارت عمرًا بأكمله بعد أن ازدحم الواقع وامتلأ بالتفاصيل الغريبة عنها ولم يعد هناك متسع للحلم ولا حتى ساعة واحدة.

****

المجتمع وأحكامه على الناس من مظاهرهم

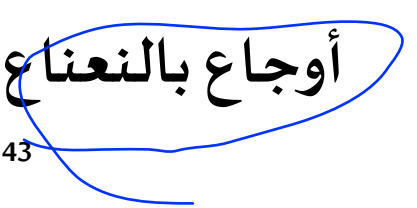

كانت تمضغ اللبان بعصبية، وفمها يتحرك بجنونٍ لا يهدأ، أنا أحرص على غلق فمي وأنا أمضغه، أهتم بما يقوله الآخرون دائمًا، وهذا يزيد من توتري، لكنها لم تكن تهتم بالآخرين، تسبهم دائمًا قائلة: "أي حد يشغل نفسه بغيره كلب ابن كلب، أتعجب لقدرتها على التفوه بالسباب علنًا وبصوت عال، كلما رأيتها حسدتها على ذلك التصالح الذي يظهر جليًا في تصرفاتها العفوية، كان البعض ينتقدها، لم أستطع أبدًا الدفاع عنها، ولم أعلن يومًا أنها صديقتي، يشككون في أخلاقها ويبالغون في مدحي، أجيد إقناعهم بهذا، لأنني فقط لا أدخن علنًا مثلها، وأبتاع مع كل علبة سجائر الكثير من لبان النعناع.

التقيت مها صدفة حين اضطررت للذهاب إلى بلدتي لاستخراج بعض الأوراق الرسمية، كانت تدخن علنًا كعادتها، لم تتغير بالرغم من أنها أصبحت أمًا لثلاث بنات، أرتني صورهن وهي تقول ساخرة بنبرة حزينة "أحفاد العالمة"، ثم أخذت في السباب قائلة بصوت مرتفع "بلد بنت كلب، لو كل واحد يخليه في حاله".

كان لقائي الأول بها منذ سنوات بعيدة منذ أن كنا طالبتين معًا في المدرسة الثانوية الصناعية التي أصرت أمي أن ألتحق بها - بالرغم من تفوقي في الشهادة الإعدادية - خوفًا عليّ من الذهاب إلى الجامعة في مكان بعيد عن بلدتنا.

قالت لها جارتنا وصديقاتها الأقرب بهمس يشبه فحيح الثعابين: "خليها هنا قدام عنيكِ، تبات في حضنك كل ليلة، جامعة وسفر وبهدلة وأصحاب لا تعرفي أصلهم ولا فصلهم، أنتِ بنتك زينة البنات، لكن زي ما بيقولوا الصاحب ساحب".

كان هذا الكلام أو أقل منه كفيلاً أن يثير قلق أمي الخامد تحت ملابسها السوداء، التي لم ترتد غيرها منذ وفاة أبي، كانت تحمل عبء كوني أنثى طوال الوقت، تحرص دائمًا على سمعتي وعما يقوله الناس عني وعنها كأرملة وحيدة.

لكني مع الوقت اعتدت أن أفعل كل ما أريد خفية دون أن أزعج نفسي بالصراع المباشر بيني وبينها، وتعلمت كيف أترك عند الآخرين ذلك الانطباع الذي تتمناه هي، بداية من تلك العباءة التي اتخذت منها زيًا دائمًا مع اختلاف ألوانها وتفصيلاتها، حتى صوتي المنخفض وضحكتي التي لا تتعدى حدود الابتسام ونظراتي الخجولة وهدوئي المفتعل، هذا بالإضافة إلى تفوقي الدراسي، لذا كنت أستحق لقب الطالبة المثالية على مدار الخمس سنوات.

وعلنًا أيضًا كنت أصادق هؤلاء المتفوقات المملات، اللاتي لا يشغل بالهن سوى عدد ساعات مذاكرة بعضهن البعض، وعن كذب إحداهن إذا أقسمت أنها لم تفتح كتابًا منذ أسبوع، ونفاق أخرى لغيرها حتى تحصل منها على بعض المذكرات، كانوا يصفونني بالخبث وذلك لأني لا أتحدث كثيرًا، بضع كلمات قليلة وابتسامات أوزعها عليهن بالتساوي، كنت بحق أمقتهن جميعًا، لكن أمي تردد على مسامعي جملة جارتنا الحرباء أن "الصاحب ساحب"، ولأن مدرستنا كانت مشتركة لم تكن أمي تثق سوى بهؤلاء الفتيات اللاتي تعرفهن وتعرف أهلهن.

لكن حقيقة الأمر أن هاتفي كان ممتلئ بأرقام أولاد كنت قد تعرفت عليهم عن طريق الإنترنت، يحمل كل منهم اسم فتاة، بل إنني ذهبت لمقابلة أحدهم ذات مرة في بلدة مجاورة لنا، لم يكن لطيفًا على أي حال، ولم تشك أمي أبدًا يومها بي، وابتهجت لأن ذلك جعلني أشعر بحرية بعيدًا عن تحكمات أمي ومخاوفها.

كانت مها دائمًا ما تجلس في مدخل دورة المياة بالمدرسة على كرتونة مطبقة تدخن سيجارة في هدوء وثقة، لا تعطي اهتمامًا لنظرات البنات المارات عليها في دخولهن وخروجهن، لا يظهر حتى أنها تسمع همسهن عليها وسخريتهن منها، بعضهن يخافونها ويتجنبونها قدر المستطاع، فإذا كانت هناك تدخن أجلن فكرة حاجتهن لدورة المياه، يقول بعض الأهالي إنها تتحرش بالفتيات، ويتهمها البعض بأنها ليست عذراءً، إدراة المدرسة تعرف أنها تدخن لكن لا أحد يتعرض لها خاصة بعد تلك الحادثة التي ظلت حديث المدرسة والبلدة وقتًا، فذات يومٍ استدعاها مدير المدرسة وبعد قليل سمع الجميع صوته عاليًا وهو يوجه سبابه إليها فاتحًا باب مكتبه وهو يجري وهي من خلفه ترفع فردة حذائها وتقول بصوت رج أنحاء المدرسة: "الراجل الشايب عينه فارغة، وإيده طويلة"، وأكملت وهي توجه له الحديث "هقطعالك لو فكرت تمدها تاني عليا".

لم أشهد الواقعة بعيني، تغيبت يومها عن المدرسة لكن فوجئت بأمي وهي تخبرني القصة ليلاً مؤكدة على أنه "البت البِجحة قليلة الأدب بتتبلى على الراجل المحترم عشان بينصحها لوجه الله ومش عايزها تشرب سجاير، ده جزاته، تربية عالمة صحيح".

لم تزل أمي وكل أهل البلدة يصفونها بأنها "بنت عالمة" بالرغم من أن أمها قد توقفت عن الرقص منذ أن تزوجت والدها، يقولون رآها ترقص في فرح ما فوقع في غرامها وعاد بها للبلدة لكن عائلته رفضت وتبرأت منه، ولم يأبه بهم واستأجر شقة صغيرة في أطراف البلدة وتزوجها وأنجب "مها" ومات بعدها بعامين، قصة مها تشبه قصتي بعض الشيء لكن أمي لم تكن راقصة، كما أنها لم تتزوج بعد وفاة أبي، أم مها ليست امرأة سيئة الخلق ولم يُسمع عنها ما يشينها أبدًا ولا تأذي أحدًا، وبالرغم من هذا لم يُغفر لها ولا لأبنائها أنها كانت راقصة في زمن مضى.

كلما تقابلت أعيننا ابتسمت لها، في تلك المرة كان الحمام خاليًا إلا منها، وقفت أعيد ربط حجابي في نصف مرآة في ركن ما ثم استدرت لها فجأة أسألها: "ليه بتدخني في المدرسة قدام كل الناس؟ ممكن تدخني في مكان يخصك محدش يشوفك فيه وتريحي دماغك".

أجابتني بنفس الهدوء الذي تدخن به: "معنديش مكان يخصني، ودماغي مش وجعاني، هما اللي دماغهم وجعاهم".

اقتربت منها وقلت لها: "أنا مصدقاكي في اللي قولتيه عن مدير المدرسة، هما صدقوا عشان هو المدير الراجل اللي عامل محترم، بس أنا بشوفه بيبص للبنات إزاي ومرة حط إيده على كتفي وأحنا في الطابور، كان ممكن لو واحدة تانية هي اللي اشتكت كانوا صدقوها".

فأومات برأسها متفهمة، يومها تبادلنا أرقام الهواتف.

في مساء ذلك اليوم بعد أن تأكدت من نوم أمي، أوصدت باب غرفتي جيدًا وفتحت الشرفة وأخرجت علبة سجائري وأخذت أفكر في مساحتي الخاصة تلك التي لولاها ما استطعت أبدًا التدخين كما أشاء، رن هاتفي فكانت مها تدعوني يوم الخميس إلى الخروج معها، هي وشلتها يلتقون بالمدينة حيث الذهاب إلى السينما أو التسكع في الطرقات، كنت أعرفهم جميعًا أولاد وبنات من المدرسة لكن لم أتحدث بالطبع لأي منهم من قبل، الأمر بدا رائعًا بالنسبة لي، مغامرة صغيرة جديدة تعني مزيدًا من الشعور بالحرية، قبلت دعوتها دون تردد، كان عليّ فقط أن أختلق عذرًا مناسبًا للوقت الذي سأقضيه معهم، وليس هناك أفضل من حجة الدروس الخصوصية كالعادة.

تحت العباءة ارتديت بنطالاً ضيقًا وتيشيرتًا قصيرًا، وكنا قد اتفقنا على أنني سألحق بهم، خوفًا من أن يراني أحد معهم فيخبر أمي.

ما إن وصلت حتى ذهبت إلى مدخل بيت في شارع جانبي، خلعت عباءتي كومتها في حقيبة يدي التي كانت تتسع لها ولحجابي أيضًا، اتصلت بمها أسألها عن مكانهم وذهبت إليهم أمام السينما حيث إن الفيلم لم يكن قد بدأ بعد.

للوهلة الأولى لم ينتبهوا إليّ ولم يتعرف أي منهم عليّ حتى وقفت قبالتهم بثقة وتحدٍ، سمعت صوت ضحكتها وسمعه كل المارة بجانبا وقالت: "ياما تحت السواهي دواهي"، وصفر أحدهم وعلق آخر قائلاً: "أهو أنتِ كده طالبة مثالية بجد"، وضحكنا جميعًا، بدأت أتعرف عليهم أكثر، وتحدثنا في أمور مختلفة، تعرفت مع الوقت على ظروف كل منهم عن قرب، الحقيقة التي تغيب عن الناس، فلا يجدون بُدًا من إطلاق الشائعات لإرضاء فضولهم ورغبتهم في التدخل في حياة الآخرين، ذابت تلك الغربة التي كنت دومًا أشعر بها مع هؤلاء المتفوقات المملات، أحببتهم جميعًا خاصة مع تفهمهم لقلق أمي وحرصهم على ألا ينكشف أمر صداقتي بهم، فكنا في المدرسة كالغرباء نبتسم لبعضنا البعض إذا تلاقت أعيننا بعد أن نتأكد أن لا أحد ينتبه إلينا، وكل خميس نتقابل نشاهد فيلمًا أو نثرثر ونغني وندخن سويًا، كنا ننزل إلى أسفل الكورنيش، غالبًا ما تكون تلك المنطقة مرسى للمراكب النهرية، فنصبح على النيل مباشرة وفي نفس الوقت بعيدًا عن الأعين.

مع الوقت تأكدت من أنهم ليسوا هؤلاء الأشرار الذين تمتلئ المدرسة بقصصهم المختلقة، هم فقط يفعلون ما يحلوا لهم علنًا دون خوف مما سيقوله الناس عنهم، وأسرهم باختلاف مستوياتهم الاجتماعية لا ينشغلون بالآخرين قدر ما ينشغل الآخرون بهم.

صحبتهم أضافت إليّ الكثير، جعلتني أشجع مما كنت وأقدر على المواجهة، لذا حين أنهيت دراستي بتفوق كالعادة، وتقدمت جارتنا الحرباء

تطلب يدي إلى ابنها اللزج الذي كان يراقبني طوال الوقت قبل سفره، رفضت تمامًا كل محاولات أمي للموافقة عليه، وأخبرتها برغبتي في إكمال دراستي وقراري بالالتحاق بكلية الهندسة، وافقت أمي تحت ضغطي وتهديدي بالهروب من البيت، أخيرًا رأت أمي الوجه الذي لم تكن تعرفه عني، والتحقت بالجامعة وتفرقنا، كل ذهب في طريق؛ سافر من سافر، والبنات تزوجن، لم أحضر فرح أيًا منهن حتى مها، انشغل كل منا في حياته وانقطعت علاقتي بهم على مدار سنوات الجامعة، لكن للأسف لم أصادف يومًا صحبة مثل صحبتهم بصدقهم ودفئهم، الكثير من المعارف وبعض قصص الحب الفاشلة، رصيدي الذي ودعت به الجامعة، بالإضافة كالعادة إلى تفوقي الذي أهلني لأن أعمل في إحدى الشركات الكبرى، كما أنني أُدرس في إحدى الجامعات الخاصة، وبالرغم من أن سطوة أمي قد تلاشت تمامًا خاصة بعد أن أرغمتها على ترك البلدة والمجئ للعيش معي بالعاصمة وانقطعت صلتها بهؤلاء الذين كانت تهتم بما سيقولوه عني، وبالرغم من أنني انتقلت للعيش في وسط يسمح لي بالتدخين علنًا إلا أنني لم أستطع أبدًا مواجهة أحد بكوني امرأة مدخنة، مازلت أنتظر حلول الليل لأوصد باب غرفتي وأفتح نافذتي وأدخن وحدي.

****

التفاحة لم تكن فاسدة

51

"التفاحة لم تكن فاسدة"

هذا ما أخبرهم به الطبيب الذي تولى مهمة علاجها، فالأمير كان مشغولاً عنها واستخف بها حينما أخبروه أنها بحاجة لقُبلة الحياة، أجابهم أن ثمة أمور أهم عليه أن ينشغل بها، وأن القُبل لا تُحيي ولا تُميت، وأن صمتها حدوتة ساذجة.

الطبيب أكد للجميع أن السم كان بداخلها، لم تكن التفاحة هي السبب في تلك الإغماءة الطويلة.

"السم كان بداخلها" ردد الآخرون العبارة بتعجب وبدون فهم، قال لهم: "إن الظلام تمكّن منها، لم ينتبه أحد لبريقها الذي انطفأ، تاهت في سراديب غربتها، ولأن لا أحد يسمع آثرت الصمت واستسلمت لضياعها وقررت أن تهرب للحكاية التي تنام فيها الأميرة، وحدها كانت تعلم بالسم الذي يسري بروحها، استغلته للفرار من التفاصيل المرهقة واتخذت التفاحة سببًا ليقنعكم، ظنت أن أميرها سيأتي مهرولاً إليها لينقذها".

وما إن انتهى الطبيب من حديثه حتى تحولوا فجأة لآلهة التفوا حولها في حلقة من نار ليرجموها بأحكامهم وقصصهم المختلقة، قالوا عنها "امرأة مدللة، ماذا كان ينقصها؟ لا ذنب لأميرها بالتأكيد، هو رجل لديه مهام كثيرة لا وقت لديه لكيد النساء وفراغهن، فالمرأة العاقلة لا حاجة لها من الدنيا إلا راحة أميرها ورضاه".

وبالرغم من فقدانها الوعي فسرت كل ما يدور حولها، أيقنت أنه لم يخذلها سوى يقينها بأنه سيأتي وبأن أحدًا لن يعرف سر التفاحة؛ فقررت ألا تعود، استسلمت لغيبوبتها، توغلت في وحدتها، غافلتهم وحررت روحها أحلامًا، في أحدهم نبت لها جناحان حلقت بهما بعيدًا عنهم ولم تعد أبدًا كما كانت.

****

الأمنيات الأخيرة لا تكتمل

كان يومًا جيدًا للسفر، مشمس ودافئ، إلا أن روحها كانت رمادية ملبدة بشجارها معه ليلة أمس، كان من المفترض أن يسافرا معًا، لكنه كعادته كلما اختلفا أغلق هاتفه وانسحب حتى يهدأ كل منهما، وبالرغم من أنها تعرف عادته تلك جيدًا إلا أنها في الصباح كررت محاولات الاتصال به مرات كثيرة بلا جدوى، اتجهت إلى موقف السيارات على أمل أن تجده هناك في انتظارها لكنه لم يحضر، صعدت إلى الميكروباص المتجه لبلدتهما وحدها، جلست بجوار النافذة تفكر في خلافاتهما المتكررة في الفترة الأخيرة، بدأ الركاب يتوافدون على السيارة واحدًا تلو الآخر حتى اكتمل عدد ركابها وانطلق السائق، كان متهورًا، بدا عليه ذلك منذ أن تحرك، يقود بسرعة فائقة ثم يفرمل فجأة، يتحدث مع سائقي الميكروباصات الأخرى على الطريق، يلقي تحية على أحدهم ثم يسب آخر، كلما حاول أحد الركاب محادثته ليهدئ من سرعته سخر منه وتطاول عليه وتطور الأمر إلى شجار مستمر بين السائق والركاب خاصة بعد إصراره أن يسلك طريقًا غير ممهد بحجة أنه أقصر، وفي خضم ذلك الجنون المتواصل كانت تحاول الاتصال به مرة أخرى، وفي اللحظة التي التفت السائق خلفه ليصرخ بالركاب ظهرت شاحنة كبيرة اصطدمت بهم وانقلب الميكروباص على جانبه وتعالى صراخهم وتداخلت أصواتهم.

"لماذا خيم الصمت فجأة على ذلك الميكروباص اللعين؟ كان صراخهم وأنينهم يطمئنني، ليتني لم أتشاجر معه بالأمس، لو كان هنا الآن معي لتشبثت بذراعه واستغليت تأزم الموقف واحتميت بحضنه من هول ما جرى، لا أستطيع الحراك قدماي عالقتان بشيء ما".

تحاول رغم كل الألم الذي أصابها أن تصل لهاتفها لتعاود الاتصال به مرة ربما تكون الأخيرة، لكن تلك المرأة البدينة التي كانت تجلس بجوارها

أصبحت فوقها تمامًا وتعوقها عن سحب يديها، كلما حاولت آلمتها أكثر، تتوقف عن سحبها وتحاول أن تحرك يدها الأخرى.

"ثمة أمور كثيرة يجب أن أخبره إياها، لا أعرف رقم النجدة ولا الإسعاف، عادة يأتون بعد فوات الأوان، لذا لن أوافقه إذا أصر أن ينهي المكالمة ليتصل بهما، أضعنا الكثير من الوقت، لا أجد يدي اليمنى أيضًا، يجب أن أشكر الشاب ذا العطر الأنيق، اختلط عطره برائحة الدم فخفف من حدته".

قبل أن تبدأ رحلتهم اللعينة لمحته من النافذة يضحك مع فتاةٍ جميلةٍ يبدو للناظر من الوهلة الأولى أنهما عاشقان، قبل أن يفترقا أمسك يدها وقبلها، كان مشهدهما كفيلاً لأن يعيد إليها ذكرى بداياتها معه وروعتها وبراءتها، توقفت ذكرياتها وهي ترد تحية السيدة البدينة التي جلست جوارها، انشغلت بها عندما ظنت أنها توجه إليها حديثًا ما، لكن بعد وقت اكتشفت أنها تحدث أشخاصًا لا وجود لهم، تنظر في هاتفها كل دقيقة تقريبًا وتقول "لا أحد... لا أحد منهم اكتشف غيابي، يا إلهي نسيت وضع الخبز مع الفطور، لا يهم لن أضطر لتناوله وحدي كالعادة، لن يفتقدني أي منهم أعرف، أعرف جيدًا"، تحرك رأسها طوال الوقت وتكرر الكلام ولا تتوقف عن انتظار اتصال تعرف أنه قد يتأخر كثيرًا.

وبالرغم من أن عدد الأفراد حول السيارة قد بدأ يزداد مع مرور الوقت إلا أن كل محاولتهم للوصول إلى بابها قد باءت بالفشل، يصلها أصواتهم من بعيد لا تتيقن إن كانوا حقيقةً أم هلاوس اللحظات الأخيرة، لكنها تسمع جيدًا رنين هاتفها أخيرًا، تحفظ نغمته جيدًا، تطمئن وتهدأ لأنه سامحها كعادته، كل خلاف معه تظن أنه النهاية لكنه يخذل ظنونها ويعود دائمًا.

"يقولون إنه يجب على النساء تحمل جنون الرجال، لذا فإن رجل يحتمل جنوني هو رجل يجب الاحتفاء به، بالرغم من أنه دائمًا ما يثير ذلك الجنون الذي يحتمله".

كان يجلس خلفها شاب صغير ذو لحية خفيفة بجوار الشاب ذي العطر، يتحدث بالهاتف منذ أن تحركت بهم السيارة، يملي على حبيبته أوامره بهدوء وبلطف شديد، "الجيب الأخضر ضيق جدًا توقفي عن ارتدائه، ولا تخرجي أبدًا مع صديقتك التي خلعت حجابها مؤخرًا، لا تتحدثي إليها ولا إلى زملائك الرجال بالعمل، حين نتزوج لن تعملي، وعودي للبيت قبل الثامنة، من الأفضل ألا تخرجي بدوني سنخرج معًا بعد عودتي"، لن نعود يا رفيق الموت، لكنك محظوظ بالتأكيد إذا كان هاتفك مازال بيدك.

تتخيل حبيبته على الطرف الآخر، قطة مدببة الملامح بوجه صغير، تهز رأسها هائمة وموافقة على كل ما يقول، تفسره خوفًا عليها وتفرح بغيرته، تحدثه همسًا كي لا ينتبه إليها أحد.

تتذكر فيلمًا شاهدته منذ سنوات بعيدة تدور أحداثه حول حادث مروع مات فيه عدد من الأفراد، ووضعت امرأة طفلها بعد أن علقت في الطريق بسبب الحادث، رافقت أرواح الضحايا الطفل طوال سنوات عمره، يراهم وحده ويحدثهم، وبعد أن كبر وأدرك عبء وجودهم قرر أن يتخلص منهم، لذا كان عليه أن يترك جسده لكل روح منهم لتحقق أمنية ما وترحل بعدها.

هل تبقى كل الأرواح عالقة بعد الموت إذا لم تحقق أمانيها؟

"لماذا لا أتحكم برأسي؟ تدلى كقطعة قماش مهترئة، هل يجب أن أتوب الآن؟ لكن عن ماذا؟ لا يحضرني ذنب بعينه أعرف أنه ربما هناك الكثير، خلافنا الأخير كان بسبب الحجاب، يعرفني منذ سنوات، لماذا أصر عليه بالأمس تحديدًا، أثار جنوني، فعددت له من جديد الاختلافات بيننا، لطالما

احتمل كل منا جنون الآخر، لكننا أضعنا الكثير من الوقت، انتظرنا أن يضحي أحدنا ليرضي الثاني ويصبح نسخته".

كانت قد بدأت تفقد الوعي تمامًا والدم يملأ فمها، راح أملها في محادثته يتلاشى تدريجيًا.

"لو كنت أمتلك المزيد من الوقت ربما أقنعتك أن ما بيننا يستحق محاولات أكثر ليتقبل كل منا الآخر كما هو، وأن العلاقات الناجحة لا مكان للتضحيات فيها، التضحية ضعف، وبقدر الحب تتحرر أرواحنا وتصبح أقوى، أقوى في مواجهة العالم بأسره لا في مواجهة بعضنا البعض، ألم أخبرك أنهم يأتون بعد فوات الأوان، هاهم ينتشلون جثثنا بقليل من المبالاة وبكثير من التعود، يضعونها في سيارات الإسعاف ويرحلون".

****

مر زمن طويل على غيابها، لكن الفراغ بداخله مازال يبتلعه كل ليلة، وترعبه المسافة التي تفصل بينه وبين الواقع، حاول أن يهرب من وحدته بعدها وفشل، وحدها تلك الفراشة اخترقت عزلته، لا يعرف تحديدًا متى ظهرت ولا كيف دخلت حياته، ارتعب حين تأكد أن لا أحد غيره يمكنه رؤيتها، حاول التخلص منها دون فائدة، تعود لا يعلم من أين، فلم يجد مفرًا من اعتياد وجودها، صارت ونسه، كلما حطت على كتفه شعر بأمان ما، وكلما رفرفت بجناحيها خُيلت له صورتها وهي تمنع خصلات شعرها المنسدلة على جبهتها من مغازلة عيناها، فيغارعليها ولا تأبه هي، وبين غيرته وكبريائها أضاعا الكثير من الحب.

****

حواديت

كانت امرأة تكره الحواديت، كلما أرقتها كتبتها، في طفولتها خدعتها جدتها بحكاياتٍ تتعذب فيها الأميرة الطيبة فيأتي فارسها المتيم ليخلصها ويهنأ كل منهما بالآخر، غررت بها وأوقعتها في فخ لم تستطع أبدًا الفكاك من شباكه الخادعة.

حتى جاء يوم حلت فيه جدائلها الطويلة لترفع بدلاً منها ذيل حصان يهتز بدلال، كان يومًا فاصلًا انتظرته ليالٍ طوال لتبدأ حكايتها الوردية، وبعد فترة ظهر من ظنته فارسها، مراهق هو الآخر يلاحقها بنظراته المحبة فتبادله الابتسام على استحياء، تتسارع نبضات قلبها وهي تهتف بفرحة أنه هو، كانت تكتب له رسائل لم تصله أبدًا، ذات يوم أوقفها بخجل أعطاها رسالة ما واختفى في لمح البصر، طارت بلهفة إلى البيت فبعد قليل ستقرأ أول رسالة حب كُتِبت لها، ربما ترسل له إحدى رسائلها التي يمتلئ بها دفترها الملون، فتحت لها جدتها باب البيت بغضب، جذبتها أمها من يدها بقسوة وطرحتها أرضًا، اختطفت منها رسالته، قطعتها إربًا صغيرة وانهالت عليها ضربًا وهي تهددها بعدم الخروج وحدها مرة أخرى حتى لا تتسبب لهم في فضيحة ما، كانت تبكي رسالته التي لن تقرأها أبدًا ولم تفهم لماذا لم يأت ليخلصها منهم؟!

مرت سنوات الجامعة بسرعة لم تدركها إلا حين انتهت منها، كانت قد التقته منذ أن وطئت قدماها أرض الجامعة للمرة الأولى ومن يومها لم يفترقا، كانت البداية تتشابه مع الكثير من البدايات، لكن فرحتها به كانت أكبر من أن تجعلها تتخيل نهاية مشابهة، وكيف لا وهي التي تربت على كذبة النهايات السعيدة، أصبحت وعوده قطع سكر ما إن تمسك بإحداها لتحلي بها مرار أيامها حتى تذوب وتتلاشى حلاوتها مع الوقت، اختفى بعد أن قدم لها العديد من الأسباب التي كانت تسمعها من صديقاتها فتؤكد لهن أنهم كاذبون، لكنها صدقته لم تكن لتكذبه ولا تكذب كل الحواديت التي حفظتها، لم تفهم لماذا لم يعد إليها ليخلصها من عذاب الانتظار!

بعد فوات العمر الجميل انتبهت لفخ الحواديت الذي كانت أسيرته، أدركت أن النهايات أكبر منها ومن أحلامها التي كانت تستظل بها، وأن حواديت الواقع تختلف كثيرًا عن تلك التي خدعتها بها جدتها، وبعد ذلك عاقبتها وأمها بسببها، حاولت الفكاك لكن الحواديت باتت تطاردها، ورفقاء خيالها لا يتركوها برهة لحالها، فإذا نامت دثروها ببساط علاء الدين، يقضون الليل سفرًا ومرحًا، ذهابًا وإيابًا في أحلامها، إذا استيقظت لاحقوها بثرثرتهم، تحاول عبثًا أن تكتب ما يقصوه عليها من حكاياتٍ فتتداخل التفاصيل وتتبدل الشخصيات لكنها لا تهتم، تستعجل النهايات - التي عاهدتها كاذبة - فتغيرها، تجعلها كما لا تشتهي أبدًا لعلها ذات يوم تأتي لغيرها بما تتمنى.

****

التهام

65

لا أعلم تحديدًا من منا يلتهم الآخر، أملئ به الفجوات الجوعى التي لا تشبعها الصباحات المتشابهة، وأسد به فراغات الحكمة الضالة، فأتناوله بنهم لإسكات الأصوات العابثة برأسي، حتى أشعر ببداية ألم في معدتي وأتمنى لو أنني تقيأت، فتتحرر روحي ويخف جسدي مما بليتهما به، عندما لا يحدث، أتخيلني أتحول لبالون منتفخ متحرر من الجاذبية فأعلو قدر ما أستطيع، وأحيانًا أحاول الإنصات لأصواتهن العابثة خاصة تلك التي تجري دائمًا ولا تتوقف، فأحاول ملاحقتها جريًا لأنفض عني بعض من الكيلوجرامات والكثير من الغضب.

****

بياض يشوبه الدخان

كانت رائحة الأرز المحترق قد بدأت تتسلل إليها لكنها لم تأبه، استمرت في ترتيب حقيبة ثالثة تملأها بالكتب، وقعت يدها على رواية ما، في صفحتها الأولى كان هناك إهداءً بلا اسم، وضعتها في حقيبة يدها وتنهدت تنهيدة أعادت إليها كل ما كان.

"لا يهم الأرز الآن لطالما كان ناصع البياض، ربما إذا احترق أحس بالفارق، تلك الرواية عليّ أن أتخلص منها كما سأتخلص من الأرز المحترق بعد رفضه له، لن أكون هنا، سيتخلص منه بنفسه، ربما قلب صحن الأرز بعصبية كما قررت أن أفعل بحياتنا، لا في الغالب لن يفعل ذلك، لن يخرج عن صمته، ربما تناوله على عجل دون أن يشعر، لم أضع كوبي المفضل بعد في أي حقيبة، لا بد أنني سأنسى أشياءً كثيرة، كيف سأجمع خمسة وعشرين عامًا في ثلاث حقائب، الملابس التي أفضلها، أحذيتي الرياضية، حقائبي، أوراق العمل، والكثير من أشياء لا جدوى لها ولا ذكرى".

رن جرس المنزل، البواب يخبرها بأن سيارة الأجرة التي طلبتها قد وصلت، كانت قد انتهت من حزم حقائبها ووضعت كوبها المفضل في إحداها، ولم تنس أن تطفئ البوتجاز بعد أن امتلأ البيت برائحة احتراق، وعلى باب البيت وقفت تجول ببصرها تودع كل التفاصيل التي صنعتها بنفسها طوال الأعوام السابقة، في كل ركنٍ ذكرى، بقيت الأركان كما هي، وكل الذكريات أصبحت رمادًا بعد الحادث، يخيل لها أنها هناك لم تزل جالسة على مقعدها في الشرفة المقابلة لباب البيت، تقرأ أو تذاكر، تحدد ذلك من كمية الأوراق المتناثرة على الطاولة الممتدة أمامها.

- ماما أنتِ جيتي؟

- أيوه يا حبيبتي، أنتِ مخرجتيش النهاردة؟

- لأ صحيت متأخر كالعادة.

تبتسم كأنها تسمع صوتها يملأ البيت كما كان، يملأه مرحًا وبهجة.

"يا مدام يا مدام لسه في حاجة هتنزلها؟".

"لأ شكرًا خلاص".

تستقل سيارة الأجرة لتبدأ رحلتها.

"لا أصدق، مر عامان على رحيلها، يومها لم تستيقظ متأخرة كعادتها، كانت تروح وتجئ بالبيت تتأكد أننا لم ننس شيئًا، تسألني عن قطتها الصغيرة أخبرها للمرة العاشرة أنها بخير عند إحدى صديقاتي، من سيهتم بقطة في المصيف؟ كانت تربط شعرها البني ذيل حصان يتماوج كلما تحركت، أكره الزحام الذي يسمح للآخرين بمراقبتي من خلف زجاج نوافذ السيارت، تخترقني نظراتهم، كأنهم يتهمونني مثله، لا أعرف لي ذنبًا إلى الآن، كانت تقود السيارة بسرعة جنونية رجوتها أن تبطئ، لم تسمعني، كأنني لم أكن هناك بجوارها، كانت تحدق أمامها مباشرة، تركض خلف ما تراه وحدها، أعلم أنه تمنى لو كنت بدلاً منها، لم يقل ذلك أبدًا لكنه يعاقبني بالصمت، السائق أيضًا يراقبني في المرآة الأمامية لمحته عدة مرات، كلما هربت من نظرات المتطفلين المختبئين خلف نوافذ السيارت وأدرت بصري عنهم وجدته يحدق بي في المرآة، ترى هل يتهمني هو الآخر؟ ربما استأجره ليقتص مني، بالطبع لا، هو لا يعرف أنني قد نويت السفر".

- لماذا الإهداء بلا توقيع؟

- أُفضل أن تحتفظي بتلك الرواية دائمًا.

- ومال ذلك بالتوقيع؟

- ليسهل عليكِ الاحتفاظ بها أينما كانت الظروف.

"لم أنتبه وقتها لما خلف الكلام، لنيته المبيتة في الاختفاء، كان يعلم أنه أيا كانت ظروفي لم يكن ليعيشها معي، هاجر دون وداع يليق بما كان بيننا، رواية تحكي قصة حب غريبين لم يحتمل كل منهما غربة الآخر وضياعه فافترقا، لم أحب تلك الرواية، لم أخبره، لم يسألني، احتفظت بها لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، الكثير من الأشياء نشعر بالضياع دونها فقط لأننا اعتدناها".

- دقيقة واحدة هنا لو سمحت.

تفاجأ السائق بصوتها يخترق الصمت، أين سيقف وسط هذا الازدحام، انتبهت لتردده، فكررت طلبها، "أي مكان قريب للنيل".

وما إن أوقف السيارة في أكثر الأماكن ملاءمة حتى فتحت بابها وانطلقت مسرعة بين السيارات، وصلت لحافة الكورنيش مدت يدها في حقيبتها سحبت الرواية ألقتها في المياه، تنفست شهيقًا وزفيرًا وعادت تتلوى بين السيارت أغلقت باب السيارة بهدوء كمن تخلص من عبوة عصير فارغ انتهى منه للتو.

كلما جاء موعد درس البالية تجري عليها بلهفة وبشوق وتقول لها بصدق وبراءة: "وحشتيني قد الدنيا"، فتحضنها وهي تقول لها: "وإنتِ كمان وحشتيني قد الدنيا".

وكالعادة ترفع رأسها لتجده في الخلف يراقبهما من بعيد يبتسم لها ويهز رأسه تحية لها ويرحل.

تأتي مبكرًا عن زميلاتها، فتقضي معها وقتًا أطول، تستمتع بحكاياتها الطفولية عن مدرستها وصديقاتها، عن تفسيرها للأمور من وجهة نظرها الملونة بلون عينيها، وعن أمها التي سافرت إلى الله ولم تعد.

- تتجوزيني؟

أربكها سؤاله المفاجئ، بلا مقدمات، بلا دعوات للخروج، بلا أزهار ووعود، وبلا مكالمات هاتفية طوال الليل، والأهم أنه بلا روايات بتوقيع دون اسم.

"كانت دائمًا ابنتي التي لم أنجبها، لماذا يعتقد أنه أكثر حزنًا مني، لم تشأ الأقدار أن أنجب، كانت هي كل دنيتي، صديقتي التي تختار لي ملابسي بعد أن توقفت أنا عن الاختيار لها، ذوقها يروق لي دائمًا فأرضى باختياراتها دون تدخل، تضحك وتقول مازحة: "هو مفيش أي شخصية كله حلو وجميل"، تهمس في الهاتف فاقترب منها بحذر وأصرخ فيها لأفاجئها: "مش سامعة مش سامعة خليه يعلي صوته شوية"، فتنتفض فزعًا ثم تضحك وتجري على غرفتها وهي تمازحني كعادتها: "ده كلام كبار عيب تسمعيه"، كبرنا معًا عشرين عامًا، كيف يظن أنه أكثر حزنًا، أين ذهب الحب الذي كان يفيض به علينا، دفنه معها، كانت زهرته التي يزدهر بها، أعلم تمامًا، لكن ما ذنبي أنا، لم أعد أحتمل الصمت الذي خيم على البيت بعد رحيلها، ترى كيف تعامل مع الأرز المحترق، من المفترض أن يصل إلى البيت بعد قليل، سيخبره البواب بالتأكيد بأنني سافرت، ربما لن يسأله عني، لعله لن ينتبه حتى لغيابي، لم يعد يراني كما لو أنه يسير مغمض العينين وراء ما يراه وحده، كان يجب عليّ أن أحتمل حزنه أكثر، تجاهله، وجعه الذي أخلفه رحيلها المباغت، انطفاءه الذي يزيد ظلمة يومًا وراء يومٍ، كيف أتركه وحيدًا وهو الذي ما غاب عني لحظة حتى ذلك اليوم المشؤوم، كان حنونًا طيبًا هادئًا لم يرفض لي طلبًا، لم يغضبني أبدًا، كيف أتركه يتجرع فقدانها على مهل وحده، سأتخلص من الأرز المحترق وأطبخ غيره، لا بل سأصنع له المكرونة كما يحبها، لم أصنعها منذ زمن بعيد،

سأعيد ترتيب الأركان، سأتوقف عن ارتداء الأسود، لن يعيدها، سأعاود فتح الشرفة المقابلة لباب البيت، سأستعيده".

للمرة الثانية فاجأت السائق بصوتها القادم من أعماق الصمت: "ارجع بينا لو سمحت بسرعة".

نظر إليها متعجبًا فكررت كلامها تحثه على العودة: "بسرعة لو سمحت، ارجع مكان ما خدتني، نسيت الرز على النار".

****

خوف

"تقابل ثورته بصمت فيتهمها باللامبالاة، تملك لكل أسئلته أجوبة - ربما غير منطقية - إلا أنها حقيقية جدًا، لا تحتمل، وجعه يؤلمها، لا يصدقها، يصر أنها تحب نفسها أكثر، ربما، لا ترى في ذلك جرم، تحب نفسها وتحبه، لا تعارض، تتأمله وهو غاضب تتمنى لو تملك شجاعة احتضانه ليطمئن ويصدق ."

****

رنين المنبه يعلن يومًا جديدًا، كل لحظة معه بداية، تستيقظ، تنظر إليه بحب وهي تربت على رأسه وتتحرك بهدوء حتى لا تزعجه، تفتح الشرفة فيداعبها نسيم بكر، هناك طاولة صغيرة ومقعدين ومن حولهما بعض النباتات ومثبت على الحائط قفص لعصافير ملونة، وما إن تنهي تحضير فطورهما حتى تجده هناك يضع بعض الحب والماء للعصافير، يلقي عليها تحية الصباح بابتسامة حانية، يفطرا معًا ويتبادلا فيما بينهما بعض الأدوية التي لا تشفي، فقط تسكن أوجاع الشيخوخة، تمسك قلم ودفتر وتكمل كتابة ما...

"هي لم تخبره أبدًا بأمر الأرواح الشريرة التي تسكنها، تحولها إلى عقلة إصبع كلما توحدت وهواجسها، ترعبها حد وقوعها بالفعل، فينقبض قلبها مع كل أمرٍ تتوقع حدوثه ويعتصر الخوف روحها، فلا تجد سوى الفرار حلاً، تختبئ داخل جيبه ولا ينتبه لها، يحتاج إليها فيبحث عنها ولا يجدها فيغضب ويثور".

ذات يوم قالت لها صديقتها: "بالخوف يكفر الله ذنوبنا، تتطهر أرواحنا بالألم لنستحق أن نهنأ بالحب بعد ذلك"؛ فاستسلمت لقدرها واعتادت الألم.

تتوقف عن الكتابة لتسأله: "هل تصدق النهايات السعيدة؟".

يضحك وهو يجيبها: "أليست نهاية قصتنا سعيدة؟".

تفكر في أن ما تعيشه في لحظة بعينها حاضر، أما عن النهايات فهي مجهولة دائمًا، ممتدة لزمن ما قد لا ندركه، يمد يده لينتشلها من مخاوفها فتتبسم، تطمئن حين تستقر يدها بين أصابعه فتتجاهل جنونها وتحاول الاستمتاع بوقت نزهتهما الصباحية، كل صباح تقرر أن تستسلم للحظاتها الراهنة لربما تعتادها وتهنأ بالحب.

****

بعض الحلوى تثير الدفء

"بعض الحلوى؟"، أربكها السؤال بالرغم من لطف المضيفة وابتسامتها حين سألتها، مرت ثوانٍ قبل أن تهز رأسها نفيًا لتعود تتأمل السحب خلف زجاج الطائرة، لا تتذكر أمرًا اتفق عليه والداها كتحذيراتهما المبالغ فيها من الحلوى منذ أن كانت طفلة، كل منهما يعطي نصائحه حسب تخصصه الطبي.

ترددت كثيرًا قبل أن تقرر زيارتها للوطن وللعائلة، لم ترهم منذ ما يقارب الخمسة عشر عامًا، والدها وحده كان يقوم بزيارات غير منتظمة وحين يعود يحدثها كثيرًا عن العائلة وعن عمها وأبنائه، حازم ابنه الكبير - والذي سيكون في انتظارها بالمطار حين وصولها - كان والدها يهتم كثيرًا بأخباره خاصة بعد أن التحق بكلية الطب، وبعد انتهائه من الدراسة ألح عليه كثيرًا ليأتي ويعمل معه لكنه رفض وحسم أمره معلنًا أنه لن يغادر الوطن، فخاب أمل أبيها وفرحت أمها وارتاحت لذلك.

هَنا أخته الصغرى اعتذرت لها في رسائل ومكالمات عديدة لأنها لن تستطيع استقبالها نظرًا لظروف عملها، مؤكدة عليها أنها ستكون في انتظارها بالبيت، هَنا الوحيدة التي تتواصل معها من العائلة، كانت تشبهها إلى حد كبير، أخبرها والدها مراتٍ عديدة كما أنها لاحظت ذلك بنفسها في الصور التي كانتا تتبادلانها سويًا، كان حجاب هَنا أكثر ما يميزهما عن بعضهما.

قبل عام لم تكن لتشغل بالها بالحجاب لكنها بعد الحادث التفجيري الذي رحل على إثره والداها كانت تتساءل دومًا لو أن أمها كانت محجبة هل كان سيشفع لها عند الشخص الذي فجر نفسه في المتجر التجاري صارخًا الله أكبر؟!

ما كانت أمها تهتم بأمر غير عذريتها لأنها أولاً وأخيرًا من المفترض أن تتزوج عربي مسلم، فتسخر قائلة: "لا يهمهم كونك صادقة، اكذبي وتلوني وكوني عذراءً سيحترمونك حتمًا"، ثم تحدث نفسها قائلة: "كلما ظننت أنني تحررت منهم أجد ما يتحتم عليّ مرعاته، لا فرار".

مجرد إجازة قصيرة، شهر فقط، وستعود بعدها لغربتها التي لم تشعر بها إلا بعد موت والديها، فبالرغم من أنهما قليلاً ما كان يجتمعا إلا أنهما كانا سندها.

حاول والدها أكثر من مرة اصطحابها في إجازاته للوطن، لكن أمها كانت ترفض تمامًا، تقول له: "لا داعي لأن تحملها عبء الذكريات وصور الوطن، إنها تشبهك ستحن بين الحين والآخر، حينها فقط ستعي اغترابها".

كانت كلما رأته منتبهًا لنشرات الأخبار وحريصًا على مشاهدة البرامج الإعلامية تقول له: "لن نعود إلى هناك ولم نعد منهم"، ينظر إليها ولا يجيب ولا يتوقف عن المتابعة أبدًا.

أيقنت مريم أن ثمة فرق حضاري كبير أخافها للدرجة التي جعلتها توافق أمها دائمًا على عدم السفر مع والدها، لم تكن تهتم حتى أصبحت وحيدة تمامًا، الأصدقاء يأتون ويذهبون وتبقى روحها باردة خاوية، الوحدة جعلتها في حاجة لوطنٍ حقيقي، شجعتها أيضًا هَنا، كانت تحثها على ذلك بشدة منذ الحادث.

أنهت إجراءات السفر وخرجت إلى صالة الاستقبال تبحث عن حازم الذي لم تره منذ أن كانت في الثامنة وكان حينها في الخامسة عشر، عرفته لحظة وقعت عيناها عليه، كان يشبه والدها نفس طوله ولون بشرته وعيناه لكنه أكثر شبابًا ووسامةً، هو أيضًا عرفها سريعًا تقدم ناحيتها متسائلاً "مريم؟".

سكتت للحظات ثم قالت بالإنجليزية التي اعتادتها: "نعم إنها أنا ماري".

رد عليها بجدية وهو يحمل عنها حقائبها: "حمدلله على سلامتك، عذرًا لا نعرف لك اسمًا غير مريم".

ابتسمت وأومأت برأسها وتركت له حقيبة واحدة وحملت الثانية، واتجهت معه إلى السيارة.

لم تعتد أن يناديها أحدٌ مريم، كانت دائمًا ماري الفتاة الوحيدة المدللة لأمٍ وأبٍ لا يشبهان بعضهما البعض، إلا أنها كانت تشبه أبيها في صفاته وطباعه مما جعل أمها تحاول باستماتة أن تشبهها في تشبثها بالغربة كوطنٍ بديلٍ أفضل، كانت تلقنها دائمًا وجهة نظرها وأرائها في الوطن، تعيد على مسامعها دائمًا عيوب رجاله حتى تحترس إذا صادفت منهم أحدًا محاولاً الاقتراب منها، "يصطنعون احترام النساء، يجيدون حلو الكلام ويكذبون حتى يسيطرون، لا يعترفون لامرأة بحقٍ سوى إسعادهم وكأنها فقط خلقت من أجل راحتهم"، تتذكر حديث أمها عنهم وتتساءل هل يشبههم حازم ويكذب كما يكذبون؟

فتح لها باب السيارة فركبت بجواره، رن هاتفه فأعطاها الهاتف قائلاً: "لكِ".

ففهمت أنها هَنا أخذت الهاتف وردت عليها، رحبت هَنا بها وأخبرتها أنها سبقتهما إلى البيت وعددت لها أصناف الطعام التي أعدتها خصيصًا من أجلها، ضحكت مريم وشكرتها، زال بعض توترها بعد المكالمة، لكن حازم مازال صامتًا، فبادلته الصمت هي الأخرى وهي تراقب الطريق "لماذا يعاملني بجفاءٍ؟ ربما كانت تلك طبيعته، ربما يكرهني، لكني لم أره منذ سنوات ليس لديه سبب لذلك، لا يهم.. هَنا في انتظاري وهذا أمر جيد، أشعر بتحسن بعد مهاتفتها، لماذا لم يمد يده ليسلم عليّ، ربما هناك ما يضايقه، عليّ ألا أشغل نفسي كثيرًا به، هو حتى لم يتواصل معي بأي طريقة بعد الحادث، لكنه لا

يشبه ذلك الشاب الذي كان أبي يحدثني عنه، أين الابتسامة التي لا تفارق وجهه والمرح وخفة الظل"، و.. فجأة قررت أن تقطع صمته وحيرتها وسألته: "هل عطلتك عن أمرٍ ما؟".

أجابها باقتضاب دون أن ينظر إليها: "لا"، وعاد لصمته وعادت لحيرتها.

كان حضن هَنا دافئ وصادق ذابت فيه كل مخاوفها من الشعور بالاغتراب وسامحت به جفاء حازم وصمته، على المائدة كان هناك الكثير من الأطباق التي لم ترها مريم من قبل، فقامت هَنا بمرح بتعريفها جميع الأصناف ثم نظرت لحازم وسألته: "أخبار المحشي إيه يا دكتور مفيش تسلم إيدك؟".

فابتسم حازم، وحازم إذا ابتسم ضحكت عيناه وغاصت غمازتان في وجنتيه، مريم لم تعد تذكر تحديدًا تلك اللحظة التي وقعت فيها في غرامه؛ هل عندما رأته للمرة الأولى وهو ينتظرها في صالة المطار ينظر إليها بعنيه الصافيتين وملامحه الجادة، أم حين أضاء الابتسام وجهه فأضاءت روحها به.

أيام قليلة مرت حتى بدأت إجازة هَنا لتتفرغ لصحبة مريم كيلا تشعر بالملل أو الغربة، في البداية أخذتها في رحلة لبلدتهما الصغيرة التي تقع في إحدى محافظات الوجه البحري وطوال الطريق كانت تحكي لها عن كل الشخصيات التي ستقابلها وعن درجة قرابة كل شخص فيهم وعن طباعهم وصفاتهم، حين رأتهم كانوا كما الوصف تمامًا وتعاملت مع كل منهم تبعًا لنصائح هَنا وصارت الأمور على أفضل حال، كانت سعيدة بهم وبذلك الجو الذي لم تعشه من قبل، الجميع يثنون على والدها يطلبون له الرحمة والغفران، كان واضحًا لها أنهم يحترمونه ويقدرونه، لا أحد يتطرق لسيرة أمها إلا واحدة من سيدات العائلة قالت لها: "ربنا يرحمها ويسامحها حرمتك من

أهلك طول السنين اللي فاتو"، إلا أن هَنا قد انتبهت لذلك فانتقلت بهم لحديث آخر تمامًا.

أم مريم لم تكن غريبة عنهم، هي أيضًا من نفس البلدة لكنها هاجرت مع عائلتها منذ صغرها وتربت بالخارج، ومع الوقت أعلنت بكافة الطرق أنها لم تعد تنتمي إلى الوطن، سافر والد مريم بمساعدة عائلة أمها وتزوجها هناك، لم يكن ينوي البقاء طويلاً إلا أنها لم توافق على العودة أبدًا ولم يستطع أن يعود ويترك ابنته، كان يشعر أن مريم غير أمها، تمنى لو أن حازم وافق على السفر لربما تزوج هو ومريم وعاد بها للوطن، لكن حازم كان لديه مخطط آخر ولم يرض لنفسه أن يقع في الفخ الذي وقع فيه عمه.

في القاهرة كانت الأمور أقل صخبًا، شغف مريم وفرحتها خلال زيارتهما للأماكن السياحية جعل هنا لا تترك مكانًا إلا وذهبتا إليه، كانت مريم تستمتع بصحبتها كثيرًا خاصة إذا حدثتها عن حازم الذي لم يكن يصاحبهما أبدًا ولا تراه مريم إلا في الصباح على الفطور وفي المساء، لا يتحدث معها إلا نادرًا لكنها دومًا تراقبه، تتمنى لو يخرج عن صمته معها ويعاملها حتى كما يعامل هَنا، يضحك معها ولها وكثيرًا ما تختفي هَنا في مكتبه تثرثر معه وتقص عليه أحداث فسحتهما اليومية، تسمعهما وهي في الشرفة تطالع الإنترنت، فإذا تحدث تغلغل صوته في أعماقها واستيقظت العصافير النائمة على شجيراتها الصغيرة.

ذات ليلة سمعت هَنا تقول له: "أنت ظالمها فعلاً، مش زي مامتها خالص".

ربما كان ذلك سبب جفاء حازم معها طوال الوقت، لكنها لم تجده مبررًا لحزنه الدائم وصمته وإصراره على عدم مشاركتهما الخروج، حتى حينما سافروا إلى البلدة أوصلهم وعاد إلى القاهرة في اليوم ذاته، محاولات هَنا

الدائمة لإضحاكه ونظرتها الحنونة الحزينة إليه إذا باءت محاولتها بالفشل، كل ذلك جعلها تشعر أن ثمة شيء غائب عنها.

ذات صباح استيقظت متأخرة عن موعدها حزنت لأنها لن تراه كما اعتادت، خرجت من الغرفة تبحث عن هَنا، فوجدت قبالتها غرفة حازم مفتوحة ومضاءة على غير العادة، نادت "هَنا".

أجابتها هَنا من داخل الغرفة "تعالي، حازم خرج".

وقفت على باب الغرفة كانت هَنا مشغولة بتنظيفها وترتيبها قالت بمرحها: "حازم يُفضل أن يرتبها بنفسه، لكني بين الحين والآخر أقلبها له رأسًا على عقب".

"غرفة حازم، وجهه الذي لا أراه، سريره، ملابسه، رائحته، وصورة ما على الكوميدينو بجوار السرير، اقتربت لأتاكد منها، أمسكتها فتذكرت أبي وهو يخبرني بيأس: "حازم إتجوز"، لم أكن وقتها أهتم بهذا الحازم الذي يتحدث أبي عنه طوال الوقت، حينها رددت عليه بسخرية: "عقبالك"، فلمحت أمي تنظر لي شذرًا، فضحكت بصوت مرتفع قائلة: "عقبالك لما تجوزني أنا كمان"، وتركتهما يضحكان وذهبت ونسيت، ها هي صورة زفافه وابتسامته المنيرة، وعروسته جميلة بملامح هادئة جذابة، كنت أتأملهما وأنا أفكر في غبائي الذي جعلني أنسى خبرًا كهذا، ربما لو كنت تذكرت من البداية.... لا أعرف ربما لا، كنت سأقع في غرامه ألف مرة ومرة".

انتفضت مريم حين وضعت هَنا يدها على كتفها، حاولت أن تتماسك وأن تخفي انتفاضة قلبها سألتها: "أين هي؟".

اكتسى وجه هَنا بالحزن وجلست على السرير، صمتت قليلاً ودمعت عيناها وهي تقول: "حادث، انقلبت بها السيارة عدة مرات، تحطمت السيارة تمامًا".

- "ماتت؟".

- "لم تنج، لكنها أيضًا لم تمت، في غيبوبة منذ ستة أشهر، لم يعد لدينا أمل في شفائها، لكن حازم لم يفقد الأمل".

- "يحبها؟".

- "كلنا نحبها، وكم تمنينا أن تعود للحياة ولحازم ولنا، لكن مع الوقت يتضاءل الأمل وعلينا أن نسلم للقدر".

"وضعتُ الصورة كما كانت، ربتُ على كتف هَنا ومددت يدي مسحت دمعات فرت رغمًا عنها واحتضنتها بشدة، تمنيت لو كان بإمكاني أن احتضن حازم أيضًا لأخفف عنه بعض وجعه، زاد تقديري واحترامي له وحبي أيضًا، وتأكدت أنه لا يشبه هؤلاء الرجال الذين حذرتني أمي منهم".

قبل انتهاء إجازة مريم بيومين سألتْ هَنا عن إمكانية زيارتها لزوجة حازم، وافقت هَنا وذهبتا معًا إلى المستشفى التي ترقد فيها زوجة أخيها، جسد بنبض فقط وبروحٍ طيبةٍ ترفرف في الغرفة، خيل لمريم أنها تبتسم رغم الأنابيب الدقيقة التي تخرج من فمها وأنفها، أحبتها وتمنت لو أنها عادت للحياة، احتضنت كفها بين يديها ومالت عليها وهمست في أذنها "تماسكي، الجميع في انتظارك".

في المطار مد حازم يده ليصافحها قبل رحيلها، كانت ملامحه قد لانت كثيرًا عن لقائمها الأول وابتسم لها فضحكت عيناه ورقص قلبها، ضغط على يدها وربت عليها بيده الأخرى قائلاً لها: "شكرًا على زيارتك، أخبرتني هَنا،

سننتظر عودتك دائمًا"، وقبل أن ترتمي على صدره ترك يديها وأمسك رأسها وقبل جبينها، كادت تبكي من فرط حنانه، لم تقل شيئًا ابتسمت ورحلت.

في الطائرة كانت ثمة فتاة أخرى بروح دافئة غير التي جاءت بها، أكثر إقبالاً على الحياة، كانت زيارتها القصيرة بمثابة بداية جديدة عرفت فيها كيف هو الوطن، عرفت أن بعض الحب لا يهم فيه التفاصيل المباشرة، وأنه يحدث فقط لينير أرواحنا لنسعد به ونهنأ بالرغم من أنه قد يبدو محالاً، بعض الحب نقع فيه فقط لنشعر بجمال أرواحنا حين تعشق، بعض البشر أحضانهم وطن، ابتسامتهم حياة، لا تملك حيالهم سوى أن تقع في غرامهم دون سبب ودون أن تنتظر منهم شيئًا، وجودهم في الدنيا نِعم يجب أن نصلي من أجل دوامها، بقربهم يسري الدفء فينا، وفي البُعد هم بوصلتنا كلما تهنا، عادت وهي ممتلئة بحب حازم، وبصدق مشاعر هَنا ورفقتها الطيبة.

"أتريدين شيئًا؟" التفتت إلى المضيفة ترد لطفها بابتسامة قائلة: "نعم... أريد بعض من قطع الحلوى".

****

دائرة الصفر

91

اختارت دائرة الصفر لتطوف داخلها حول وجعها وحدها، تتشبث بحافته خوفًا من تطفلهم، كانت تهابهم فاعتزلتهم منذ زمن، صدقت الحدود التي وضعتها، رفضت الدخلاء، ففي الغالب لا يتعدى دورهم الخذلان ليمضوا بعد ذلك بهدوء كأن أمرًا لم يكن ليزيد يقينها بأن لا مكان آمن مثل دائرة الصفر.

لكن الضوضاء الصاخبة بالخارج أثارت جنونها الساكن، فتحركت ببطء تجاه شرفتها، فتحتها ونظرت إلى هؤلاء الذين تسببوا في إزعاجها بثقبين فارغين وانفجرت بكل الألفاظ البذيئة التي سمعتها من قبل، صرخت فيهم بكامل جنونها وغضبها، صبت عليهم كل اللعنات، لم يلتفت إليها أي منهم، فانتبهت أن لا صوت لها وأن ما تتفوه به يتردد بداخلها كصدى صوت بعيد، لكنها لم تهتم أن أحدًا لم يعبأ بما فعلت، أحكمت إغلاق الشرفة وعادت لدائرة الصفر من جديد تطوف فيها بهدوء الموتى.

****

على وشك بكاء لا يحدث

تقضي نهارها تلهث خلف طموحها، تهرب من ملاحقة طيفه لتلاحق أحلام لا تكف عن مراودتها ليل نهار، وكأن طيفه يعاقبها على ما اقترفته، فلا تركها لحالها ولا أقنعه يومًا أن يغفر لها، لكن ليلها لم يكن بهذا القدر من الانشغال، تصل إلى بيتها منهكة تمامًا لا تتمنى أكثر من سرير ومشروب يساعدها على النوم، فتستقبلها وحدتها، تفرد ذراعيها تضمها بوهن، وبدلاً من أن تعد لها مشروبها المفضل تمد يدها في جيوبها وتخرج لها الكثير منه؛ صوره، رسائله القديمة، صدى صوته وضحكاته التي كانت آنذاك سببًا كافيًا للبهجة، الوحدة تجعل الليل بطوله من نصيبه.

تقول لها صديقتها دائمًا: "أنتِ على وشك الجنون"، لا تناقشها، هي أيضًا كانت تشعر بذلك.

قالت لها أمها ذات يومٍ: "الحب يذهب ويجئ، نجاحك في العمل هو سندك الأضمن، الرجال لا أمان لهم".

أعلن لها موقفه مخيرًا إياها: "أنا أو السفر".

تلك المرة اختارته وتخلت عن أحلامها، لم يجعلها تندم على اختيارها، لكنها لم تقتنع بدور المرأة الراضية المطيعة، لذا حين تكررت الفرصة مرة أخرى لم تتردد، حسمت موقفها، لم تخبره، لم تودعه، هربت من مواجهته، خذلته وأودعته ألمًا لا يستحقه.

التقيا للمرة الأولى يوم خطبة ابنة عمه، صديقتها المقربة، جلس على طاولة قريبة منها، كانت أعينهما تتلاقى بين نظرة وأخرى، ظنت أنها رأته من قبل، وبعد أن تعارفا سألته عن كل الأماكن التي كانت تذهب إليها لعلها قابلته صدفة في أحدها، لكنه نفى، كانت على يقين أنها رأته من قبل، لم يكن غريبًا عنها، كان قريبًا لدرجة ارتعابها من افتقاده، ورغم ذلك فارقته للأبد.

لم تجرؤ يومًا على مراسلته، خاصة بعد أن حظرها من جميع صفحاته على مواقع التواصل الاجتماعي، لكنها كانت تكتب إليه، الكتابة صمام أمان، وكعادتها لم تواجهه حتى برسائلها.

كانت قد عرفت أنه لم يتحدث عنها لأحدٍ ولم يتتبع أخبارها، وأنه بعد وقت قصير من سفرها نقل عمله إلى الإسكندرية، وغير أيضًا رقم هاتفه، عرفت ذلك من محاولاتها للاتصال به من الخارج، حين بدأ جنون افتقاده يصيبها.

"العمل لم يشغلني بالقدر الذي توقعت، والنجاح لم يضئ روحي المظلمة بعدك، مازلت حاضرًا بكل تفاصيلك ودفئك وصدقك، أحدثك طوال الوقت، أقص عليك كل الحكايات التافهة والأمور الهامة، أضع توقعات فيما أود استشارتك فيه، أتمعن في صورتك وفي عينيك، مرة أراك معاتبًا، ومرة محبًا، ومرات غاضبًا مني، أعرف أن كل محاولاتي لإرضائك ليست مجدية، لن ترضى بحلول وسط، ورداء المرأة المضحية لا يصلح لي".

****

تقول لها صديقتها: "الخروج والأصدقاء والسهر، لماذا تصرين على الاعتكاف في محرابه الوهمي وتحرمين نفسك متع الحياة، لم يعد له وجود"، وتضحك وهي تخبرها أن العالم مليء بالرجال، وإنه لمن الجنون أن تبقى على حب رجل لم تره منذ سنوات، في حين أنها لا تبقى مع رجل واحد أربعة أشهر كاملة.

لكنها كلما حاولت الخروج معهم رأته بينهم يطل عليها بعينيه الصافيتين، يبتسم ويمد يده يحتضن يدها، فتبتسم كأن لا أحدٍ غيره حاضرًا، تركلها صديقتها في قدمها من تحت الطاولة حين يطول تحديقها في الفراغ بابتسامة

بلهاء، تعود إليهم لتكتشف غيابه من بينهم، فتتركهم وترحل، تتسكع في الطرقات بلا هدف، تتخيله معها تتأبط ذراعه وتثرثر معه كما كانوا، لكنه طيفه فقط.

ذات مرة سألها رئيسها بالعمل: "أهناك ما يزعجك؟".

- "لا كل الأمور تسير كما خطط لها".

- "لا أسأل عن العمل، أنتِ دائمًا على وشك بكاءٍ لا يحدث".

فاجأها بحديثه الخاص لأنه شخص لا يأبه بشيء غير العمل، كادت تقول له "لأنه النهار يا سيدي، الليل أولى بدموعي"، لكن ذلك لم يحدث بالطبع، قالت له: "أعاني من الحساسية التي تجعل عيناي تدمعان دائمًا"، وشكرت له اهتمامه، فهز رأسه متفهمًا داعيًا لها بالسلامة.

"جميع أصدقائنا بما فيهم ابنة عمك قطعوا صلتهم بي تدريجيًا بعد أن سافرت، يرون أنني أجرمت بحقك، لست بحاجة لرأي أي منهم، أعرف جيدًا ما فعلت، لم يروا سوى وجعك الذي حملته ورحلت به بعيدًا عنهم، لم يعرف أي منهم شيء عن حنيني الذي يستحل ذاكرتي، يعبث بأوجاعي، ويلوح لي بأحلامي ثم يلوكها بين أنيابه، كلما أنهكني واعتقدت أنه ما عاد قادرًاعلى إيلامي فاجأني بقدرته على انتهاكي أكثر وأكثر، وأنت لا تأبه، كرامتك أولى بك مني".

تقول لها صديقتها: "إنه اختيارك، لم يجبرك أحدٌ على تركه".

"لم يكن الاختيار الأسهل، لو كان صادقًا حقًا ما رفض نجاحًا أحرزه في عملي، لو كان الأمر معكوسًا ما كنت لأخيره بيني وبين سفره، لكن لكوني امرأة يجب عليّ ألا أتعدى وجود الرجل، تبقى دائمًا اختياراتي محدودة به، تناسبه قبل أن تناسبني، ويرضى عنها قبل أن أقرها."

قالت أمي آنذاك: "فرصة لن تتكرر مرة أخرى، محظوظة لأنها تكررت مرتين، من يضمن؟".

قلت لها: "لكنني أحبه".

- "لو أحبك لوافق على ما يسعدك، استقلالك وإلا ستبقين تابعة للأبد، التضحية لمرة واحدة تجرك للكثير من التضحيات، ستنسي، كم من قصص لم تكتمل وكم من عشاق افترقوا، لم يمت أي منهم، استمروا وبدأوا حيوات جديدة".

أقنعت نفسها بحديث أمها الذي بدا منطقيًا ويناسبها أكثر من الحب.

وبالرغم من أن العالم يمتلئ بالرجال حقًا إلا أن لا أحد يشبهه، ومع الوقت راح أملها في سماع صوته يتلاشى، فلا ارتعش هاتفها بفرحة اتصاله ولا أنارت رسائله بريدها الإلكتروني، الجفاء الذي أصر عليه طوال سنوات جعلها تقسو هي الأخرى، والحنين تحول لوجع سكّنته الأيام، فتوقفت حتى عن كتابة الرسائل التي لم تكن ترسلها، صدقت أمها حين قالت إنها لن تمت، لكنها كذبت حين أخبرتها أنها ستنسى.

****

بين الحب والعمل .. وتحقيق الذات

فاصل من الماضي

101

"مندهش أنا يا عزيزتي، كيف أنني أضعتك وانغمست في حياةٍ لا تشبهني، وحدك كنت مرآتي، ضميري الذي لم أقدر على مواجهته، فردت جناحي وهربت بعيدًا عنكِ خوفًا من أن أسلم لك فأفقد قدرتي على الطيران، لكنني بعدك فقدت المدى، كنتِ سمائي التي ما إن أحلق إليها حتى أشعر بحريتي كاملة، لم أدرك ذلك حينها."

وصلتها رسالته تلك في اليوم التالي لمقابلتهما صدفة في أحد المولات الكبيرة، كانت تتنقل بين محال مستلزمات الأطفال لتبتاع ما يليق للاحتفال بمجئ حفيدتها الأولى، رأته واقفًا عند مدخل أحد المحال حاملاً بعض الأكياس ويهز قدمه بعصبية وبصبر على وشك النفاد، وقفت قبالته برهة قبل أن تصيح "مش معقول" وانفجرت ضاحكة.

التفت إليها متفاجئًا وما إن وقعت عيناه عليها حتى انفجر ضاحكًا هو الآخر بعد أن توقفت قدماه عن الاهتزاز.

"وحشتيني" قالها بعفوية وسعادة، ثم دعاها للجلوس معه بعض الوقت بعد أن اتفق مع أخته على مهاتفته حين تنهي تسوقها، أخبرها أن أخته عادة ما تصطحبه لشراء مستلزمات أطفالها، تعتقد أنها بذلك تثير بداخله مشاعر الأبوة لربما تحمس لفكرة الزواج مرة أخرى.

أكملا معًا حديثهما الذي انقطع منذ عشرين عامًا، تسابقت الأسئلة من كليهما ليعرفا أكبر قدر من أخبار بعضها طوال السنوات الماضية، استدعيا الكثير من الذكريات التي كانت بينهما وضحكا كثيرًا عليها، مر الوقت سريعًا وقبل أن ترحل لم ينسا أن يتبادلا أرقام الهواتف وعناوين بريدهما الإلكتروني.

فاجأها اعترافه المتأخر عمرًا، لم تعرف بماذا تجيب وهو الغائب المنفي في غياهب روحها، والصديق الذي لم يكن أبدًا أحد في قربه، الحبيب الذي تركته هي بكامل إرادتها، لتبدأ حياة خالية منه، وممتلئة بحلم أمومتها.

"وصلتني رسالتك متأخرة زمنًا يا صديقي، لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل، إلا إذا كنت لم تتغير وكعادتك معي لا تعرف تحديدًا ما تريد، أمازلت تذكر ذلك اليوم الذي كان فاصلاً في علاقتنا؟

سألتك يومها هل أندهشت فقلت: لا، فبالغت أنا في إظهار فرحتي لأنتشل روحي من الغرق قاومت خذلانك بالضحك، وسألت نفسي كثيرًا هل استفزك ضحكي وما بدا عليّ من سعادة زائفة آنذاك فكرهتني أم أنك أخذت وقتًا لتدرك ما آلت إليه علاقتنا؟

كنت دائمًا صديقتك القربى التي لم ترق أبدًا لدور الحبيبة، لطالما كان لديك بطلات أخريات لهذا الدور، فحافظت لنفسي على مسافة بيننا لم يتجاوزها كلانا، كنت تعلن دائمًا لي وللآخرين ولنفسك أننا لسنا أكثر من صديقين قريبين جدًا.

متى اتضحت كذبتك يا صديقي: هل حين أخبرتك بموعد زفافي، أم بعدما أرقك افتقادي؟

ونحن نستدرج الذكريات لُمتني لأنني فسرت صمتك حينها لامبالاة، ولأنني لم أوافيك بالتفاصيل تباعًا كما كنت أفعل دائمًا، لأنني دعوتك كغريب! الحقيقة أنك لطالما تصرفت معي بغرور، فلم تقترب يومًا كحبيب ولم تدع أحدهم يقترب، تبالغ في إظهار عيوبهم وتعاملهم بعداءٍ خفي وتعاملني كوصي.

أي وجع تلومني عليه، وأي غيرة كان عليّ أن استشعرها إذا كنت أنت قد أخذت وقتًا في تفسير مشاعرك، لقد آثرت البعد دون عتاب واختفيت تمامًا

وانشغل كل منا بأمره، الانشغال يا عزيزي مسكن الافتقاد الذي يتحول مع مرور الزمن إلى عادة راكدة لا شغف فيها.

سنوات، سنوات كثيرة توقفت عن عدها منذ زمن بعيد، لكن حين قابلتك صدفة لمحتني في بريق عينيك، أنا وأنت وقصة أخرى غير التي كتبها لنا القدر.

اندهشت لأن العشرين عامًا التي فصلت بيننا ذابت في ساعة من الثرثرة عن أخبار العمر، لكن أخبار العمر لم تعد تقتصر عليّ وحدي، ثمة آخرون يقتسمون معي التفاصيل، أبطال يغيبون عن مشهدك".

جاءها رده: "أحتاج إليكِ بقدر سنوات الوحدة والوجع".

مازالت جمله المقتضبة تحمل أكثر من معنى، ترمي بها لأبعد ما قد تحمل، يجيد فعل ذلك، تحفظه جيدًا، أدركت أنه لم يتغير، حكى لها عن تجربة زواجه من امرأة أجنبية وعن طرقه الملتوية للفكاك من سيطرتها كما وصفها، لم يعتد أن يسلك طرقًا مستقيمة، لا يجرؤ على المواجهة ولا على صيغ الجمل المباشرة، فإذا أخفق أو غير رأيه لا يجد حرجًا فيما لم يعد به صراحة.

"كبرنا يا عزيزي، لم يعد لدي طاقة للحرث في البحر، من قبل صبرت منك حتى امتلأت وفاض الوجع، طفت فوقه ونجوت بنفسي، الفرار منك ليس بالأمر الهين، والتسليم لك غرق لا نجاة منه".

لم تستقبل ردًا هذه المرة، فقبل أن تغلق حاسوبها وضعت بريده الإلكتروني في قائمة الحظر وأسرعت بابنتها إلى المشفى لتستقبل بطلتها الجديدة.

****

تحت سقف الخذلان

107

لأنني لا أطيق العمل مع الأشخاص المتعجرفين ولا طاقة لي بتقبلهم بحياتي؛ استقلت بعد أن فشلتُ تمامًا في تقبل غرور المدير الجديد، كنت أتجاهله طوال الوقت وهذا أثار العداء بيننا أكثر، بدأت البحث عن عملٍ جديدٍ، دوامة انتهيت منها منذ سبعة أعوام حين كان عمري ثلاثين عامًا، سبعة أعوام بالعقد الثلاثين رقم لا يمكن الاستهانة به، وتحول لا يمكن تجاهله، بعد استقالتي كان لدي الوقت الكافي لأفجع بتلك السنوات التي مرت دون حسابها، فقط بعض التعليقات لأنني لم أتزوج بعد كانت تعيدني للواقع، إلا أن ذلك أيضًا لم يكن بالقدر الذي يزعجني لأنني كنت أسكن وحدي بعد وفاة أمي وأبي وهجرة أخي الأكبر الذي بدوره لم يكن يهتم كثيرًا، وبعد زواج أختي الصغرى التي سافرت أيضًا مع زوجها إحدى دول الخليج، أما عن الأقارب فتدريجيًا انشغل كلٌ بحاله، وكلما أزعجني أحد أستغنى عنه، لا أعرف أبدًا كيف يطيق البعض احتمال أشخاص يسببون له إزعاجًا بشكل أو بآخر، كنت أستمتع بوحدتي وبعملي وبأصدقائي الذين أختارهم بعناية لمشاركتي استمتاعي بالحياة التي اخترتها لنفسي.

معظم الشركات والمؤسسات التي يمكنني العمل بها لا يريدون نساءً فوق الثلاثين والقليل منهم قد يرتفع بالسن إلى الخامسة والثلاثين، وفي المقابل بالنسبة للرجال يزيد الأمر في الحالتين إلى خمس سنوات أو أكثر، يعترفون بسنوات خبرة الرجل أكثر من المرأة، الأمر الذي لا أفهمه خاصة وأنا امرأة غير متزوجة وليس لدي أطفال، أليست تلك الأسباب التي يرونها سببًا كافيًا للتقليل من كفاءة النساء وخبرتهن العملية؟ قضيت عدة أشهر بلا عمل وكان ذلك الوقت كافيًا لأقيم خلاله ما حصلته خلال سنواتي الماضية، وكافيًا أيضًا لأكتشف وحدتي التي طالما انشغلت عنها بالعمل، كنت كمن انزلقت قدمه فجأة وتدحرج من قمة جبل ثم استقر على ظهره ليراقب السماء التي تظله، وكيف ينتبه لها وهو مشغول بالركض، هكذا جعلني الفراغ، أراقب

حياتي على مهل، كان لدي الكثير من الساعات التي أستلقي فيها على سريري أحدق في سقف الغرفة، أستحضر أرواح الأموات وأحاسب الأحياء، وفي زمن ما كان لدي سلطة على مديري السابق فانتقمت من غروره وطردته من العمل، وفي تلك اللحظة التي أدركت فيها أن الفراغ يلتهمني ببطء، نفضت عني غطائي وتركت سريري وودعت سقف غرفتي وقررت أن أبحث عن عمل بجدية أكثر من ذي قبل.

حدثت أختي لتساعدني بالبحث عن عمل بالخارج، كما سجلت في كل المواقع التي قابلتني أثناء بحثي على الإنترنت، كلمت أصدقائي ومعارفي، بحثت كثيرًا حتى وجدت إعلانًا يناسبني بدرجة كبيرة خاصة وأن السن لم يكن محددًا، في اليوم المحدد للمقابلة استيقظت مبكرًا وبدأت أطمئن نفسي المضطربة، نظرت في المرآة فلاحظت أن وزني قد ازداد، كما أن عيناي منتفختان ومحاطتان ببعض السواد "لا مشكلة، القليل من المكياج سيصلح الأمور"، وقبل أن أدير وجهي لأرتدي ملابسي لاحظت خصلات بيضاء لم ألحظها من قبل "لا مشكلة أيضًا، للحجاب فوائد شتى" قلت لنفسي وأنا أهدئها وبدأت أدندن لحن ما وأنا أستعد للذهاب.

في السيارة كنت سأجن بسبب الازدحام الذي جعلني على وشك تأخير لم أعتده ولم يكن وقته أبدًا في مقابلتي الأولى، وأخذت وقتًا حتى وصلت للعنوان الذي أملته عليّ السكرتيرة التي حدثتني لتحديد الموعد، في المرآة الكبيرة التي توجد بالمدخل القيت نظرة سريعة على هندامي وأخذت نفسًا عميقًا ووقفت في انتظار المصعد.

بالكاد وصلت بالموعد، قدمت نفسي إلى موظفة الاستقبال، رحبت بي وطلبت مني الانتظار قليلاً، ووجدتني أول ما وقعت عيني عليه كان السقف فضحكتُ بسخرية وتخيلتني أخبرهم أثناء المقابلة أنني تخصص أسقف،

تناولت إحدى المجلات لم يستهوني الغلاف فتركتها، أخرجت هاتفي وتصفحت الإنترنت سريعًا، مللت فأدخلته الحقيبة مرة أخرى، كنت سأتوجه إلى الشرفة الكبيرة التي تتوسط مكتب الاستقبال لكن الموظفة سبقتني ودعتني لبدء المقابلة، سرت خلفها، فتحت باب المكتب، تنحت جانبًا وأصبحت في المواجهة، ثلاثة أشخاص خلف طاولة نصف دائرية: امرأة ورجلان، وخلال تلك الخطوات التي كانت تفصلني لأجلس قبالتهم شهقت روحي فجأة حين التقت نظراتنا ورأيت انفراجة خفيفة على شفتيه وبريق عينيه، فتأكدت من أنه هو، أشارت لي السيدة بالجلوس، وبدأت طقوس مقابلة العمل ما بين أسئلة معتادة وأخرى يكتشفون بها مهاراتي، حاولت بذل جهد للحفاظ على تركيزي، وجهد غيره لضبط نبضات قلبي المتسارعة، تحولت فجأة لشخصية كرتونية تدفع بقلبها إلى مكانه كلما تمرد على موقعه معلنًا انتفاضته، كنت أمامهم رابطة الجأش تمامًا، أتكلم بجدية، أبتسم بمسطرة، أتحكم في انتظام شهيقي وزفيري، إلى أن تحدث وطرح تعليقًا ما لم أفهمه جيدًا من شدة ارتباكي حين سمعت صوته، يا الله خمسة عشر عامًا مرت دون أن أسمع صوته أو أعرف عنه خبرًا، دون أن ألتفت ورائي لأبحث عنه.

انتهت المقابلة دون أي حديث شخصي أو أي التفاتة توحي بأننا نعرف بعضنا البعض، ذهبت بعد أن أخبرتني السكرتيرة بأنها ستحدثني خلال أيام، هززت لها رأسي ونزلت مسرعة على الدرج لم يكن لدي صبر لأنتظر المصعد، لم أعرف كم من الوقت جلست داخل سيارتي لأهدأ، كنت منفعلة جدًا، كنت أتأرجح بين مشاعر مختلطة، بقيت سنوات أحافظ على ثبات وجداني واستقراري النفسي، لا أسمح لأحدٍ بأن يخترق قوانين وضعتها للحد من غرور الرجال وتفاهتهم، كانت تلك الطريقة تبقيني بأمانٍ من العبث بمشاعري، ففي الغالب الرجال لا يرضخون لقوانين النساء، ينتظرون دائمًا أن نخضع لهم.

كنت أفتح باب البيت وأختي تتصل على هاتفي لتطمئن على نتيجة المقابلة التي سبق وأن أخبرتها بموعدها، لم أستطع الحديث معها، أرسلت لها رسالة لتتوقف عن الاتصال، أخبرتها كذبًا أن كل الأمور على ما يرام، ودخلت غرفتي، تمددت على سريري بعدما تخلصت من حذائي وحدقت في السقف من جديد، فخيل لي أنه يبتسم ابتسامة باتساع عرضه مرحبًا بي، فابتسمت لرفيق وحدتي وكأنني أعتذر عن هروبي السابق.

كنا قد أنهينا دراستنا الجامعية قبل عامين آنذاك، لم يكن أي منا قد وجد عملاً وخلال هذين العامين تشاجرنا كما لم يحدث خلال سنواتنا الجامعية الأربع، مشاجرات على كل شيء، كنت أنتظره يتقدم لخطبتي لكننا لم نكن نتحدث في ذلك مباشرة، لم يكن منطقيًا أن يحدث ذلك قبل أن يجد عملاً وتستقر ظروفه، مع الوقت تسرب الملل لعلاقتنا، فترت بسبب كثرة الخلافات والاتهامات التي نتبادلها كلما حاول أحدنا معاتبة الآخر، فينتهي بنا الأمر بشجار جديد يضاف لرصيدنا القديم الذي تراكم وأصبح سدًا بيننا، لذلك كلما تعالت أصواتنا لم يعد أي منا يسمع الآخر، ثم هدأ الصخب مرة واحدة، ارتطام تبعه سكوت المفاجأة، مفاجأة أن كلا منا خرج من حياة الآخر للأبد.

كانت تلك الفترة بداية علاقتي بسقف غرفتي، أستلقي على ظهري وأخبره "أفتقده يا صديقي، لكن الأمور لا تسير كما نريد، ذلك الدرس يجب أن أعيه جيدًا، لن يفعل أحدٌ بي مثلما فعل، من يريد أن يقترب عليه أن يقدم ضمانات ولائه، أن يتعهد بألا يبتعد، يجعلني أثق به كما أثق بذاتي، أن يكون بأمان وطن وبقرب روح وبدفء كل الأحضان التي أفتقدها".

كنت أقضي ساعات وحدي بحجرتي، لم تكن تلك عادتي؛ مما أثار قلق عائلتي، لذا أقرا أن العمل وحده هو المنقذ قبل أن تمطر سحابة الحزن التي

خيمت بصمت على غرفتي منذ فراقنا، أخذا على عاتقهما إيجاد عمل لي وهذا لم يكن صعبًا على كليهما، فقد كانا يعملان ولديهما الكثير من المعارف، وفي أحد الصباحات أيقظتني أمي قائلة: "يالا بسرعة أجهزي، عندك مقابلة شغل النهاردة".

كان الاستيقاظ مبكرًا آنذاك أمرًا شاقًا، تمنيت لو أنها تركتني لأكمل نومي وأهنأ بكسلي، لكن لحسن حظي أنه كان لدي أب وأم يعرفان ما يجب فعله لما كنت أعانيه.

وعلى طاولة الفطور قال أبي مداعبًا: "مقابلة شغل مش عزا"، فابتسمت له وردت أمي نيابة عني وهي تغمز لي "زي القمر، سيبك منه".

وانغمست في العمل كليًا، كنت أهرب من الاستلقاء تحت سقف غرفتي قدر استطاعتي، أهرب من التفكير في الأسباب التي جعلتنا نستغني عن بعضنا بهذه البساطة، من العمل صباحًا حتى مختلف الدورات التدريبية مساءً، ما بين اللغات ومهارات العمل والتنمية البشرية، السويعات القليلة المتبقية لأصدقائي أو اللقاءات العائلية التي كانت لم تزل حية في وجود أبي وأمي.

من وقت لآخر كانت أمي تخبرني عن فلان أو عِلان العريس الذي يطرق الباب للزواج، لم أكن أهتم ولم يكن أي منهما يفرض رأيًا لا أريده، وانقضت السنوات هادئة إلى أن أصاب والدي مرض القلب، عانى على إثره عده أشهر ثم توفي، كان وجعي الثاني، حزن آخر هربت منه أيضًا للعمل، صمتت أمي بعد وفاته، كان حب عمرها، ذبلت تمامًا حتى لحقت به بعد عامين زوجت خلالهما أختي الصغرى، بينما كان أخي مهاجرًا قبل وفاة والدي بعامٍ واحد، كانت أحداث الفقد سريعة متتالية بالنسبة لي، وهكذا وجدت نفسي وحيدة

تمامًا، كل فراق أودعني رغم الوجع قوةً ما ويقينًا بأنني يجب ألا أنهار، لم يعد هناك سند أتكئ عليه إذا وقعت.

مرت أربعة أيام قبل أن تعاود السكرتيرة الاتصال بي لتخبرني بأنني قبلت بالعمل، كانت ربما أطول أربعة أيام قضيتها منذ سنواتٍ، كاد التفكير يفتك بي، كنت قد لاحظت خاتم زواج فضي في يده اليسرى، فشعرت بالغيرة من امرأة لم أكن أعرفها: "كيف يضحك لها، يمسك يديها يقبلها، هل يتشاجر معها كما كان يفعل معي، هل لديه أطفال؟ يشبهونه أم يشبهونها؟ هل حدثها عني من قبل؟ هل تعمل؟ ما شكلها؟ لون عينيها؟هل أحبها؟ هل تحبه، أم أنه زواجًا تقليديًا؟ منذ متى تزوجا؟" كانت كل تلك الأسئلة وأكثر منها محور أيامي الأربعة التي تلت المقابلة حتى تلقيت مكالمة القبول.

يومها خرجت وابتعت ملابس جديدة أقنعت نفسي أنها احتفاء بالعمل الجديد، كنت أكذب!

في الصباح أخذت وقتًا أكثر من المعتاد أمام مرآتي، وفي اختيار ملابسي، وفي ضبط حجابي، وفي كيفية توزيع المكياج كي يبدو ملائمًا للعمل، حاولت إزالة بعض توتري خاصة حين فاجأني شعور بأني أتصرف كمراهقة.

أنا أجيد اصطناع الجدية، أعرف كيف أتحكم بملامحي ومع الوقت تدربت على إخفاء انفعالاتي، لذا حين وصلت لمقر الشركة كنت أبدو هادئة تمامًا وكأن بركاني الثائر منذ أيام لا وجود له، اصطحبتني السكرتيرة لمكتب آخر غير الذي تمت فيه المقابلة وللحظات لم أكن أدري أيهم سأقابل هذه المرة، ولحسن حظي أو ربما لسوئه - لم أعد أعلم تحديدًا - وجدتني في مواجهته وحدي بعد أن انسحبت السكرتيرة وأغلقت خلفها باب المكتب، وحينها تحرك من خلف مكتبه ووقف أمامي مادًا يده إليّ بابتسامة أكثر وضوحًا وصراحةً من تلك التي كانت في المرة الأولى، ربما مرت لحظات قبل أن

أمد يدي أنا الأخرى، جاهدتُ حتى لا ينفلت زمام حنيني، شعرت لوهلة أنه يجذبني إليه لأقترب أكثر لكنني سحبت يدي وارتميت على أقرب مقعد بدلاً من أن أرتمي بحضنه.

"خمسة عشر عامًا" قال كمن يحدث نفسه وهو يشعل سيجارة ثم أردف: "كيف حالك؟ كيف كانت سنواتك؟ أين كنتِ؟ تزوجتي؟ لم ألحظ خاتم زواج بيدك المرة السابقة؟".

بدت ملامحه أكثر نضجًا من ذي قبل، ربما أصبح أطول أيضًا، وصوته أعمق، كنت أتفحصه بهدوءٍ محاولة ألا أظهر انفعالي له.

"كنت أعمل لم يكن لدي وقت للزواج" قلت مازحة.

فضحك وقال: "من حسن حظك أنه لم يكن لديكِ وقتٌ"، نظرت إليه مستفهمة، "كان لا بد أن أستنتج ذلك وحدي، بدا واضحًا على شكلك ياعزيزتي، مازلت كما أنتِ بل أجمل"، سكت قليلاً وأكمل بهمس: "ربما أنضج"، ارتفع صوته مرة أخرى وهو يخبرني أن الزواج والحمل والأبناء يخسفون بجمال الأنثى وبرقتها الأرض.

لم تعجبني طريقته في الحديث ولا وجهة نظره المتعجرفة، للحظة شعرت أنني أمام رجل غريب لم أعرفه قط، رجل أكثر خبثًا وشرًا من ذلك الشاب الذي كان قبل خمسة عشر عامًا؛ لذا قررت أن أجعل حديثنا أكثر جدية وسألته "كيف هو العمل هنا؟".

"لا تقلقي كل الأمور ستكون بخير، طالما أنا مديرك المباشر".

وبدأنا حديثًا مطولاً عن العمل، شرح خلاله النظام والمواعيد والشركات التي نتعامل معاها وغيرها، وكلما توغلنا في الحديث كلما تأكدت أنني أمام رجل مختلف حقًا لكنه أكثر جاذبيةً وثقةً وغرورًا.

"يجب أن أهرب، كالعادة لن أحتمل غروره، لكنه لن يجرؤ أن يعاملك بتعالٍ، وإذا فعل سألكمه في وجه، بالطبع لن تجرؤي، سأنسحب حينها بهدوء، لكنك إن لم تهربي الآن لن يمكنك الفرار أبدًا".

توالت الصباحات المشرقة به، هذه المرة كان الانغماس في العمل لأسباب أخرى غير الهروب، أو ربما كنت أهرب إليه من وحدتي، استسلمت لمراهقتي المتأخرة، أعطيت ضميري مسكنات لتهدئته بعض الوقت لكنه يعود من جديد يجادلني في شأن امرأة أخرى لاذنب لها.

في البدء لم يكن يتطرق للحديث عنها، لكن مع الوقت ومع الساعات المتواصلة التي كنا نتحدث خلالها عرفت كل تفاصيلها وتفاصيل البيت والأبناء وأوقات الشجار وأسباب الخلافات.

كنت أشفق عليها، وأعي جيدًا أنه من هؤلاء الرجال المتعجرفين الذين لا يعترفون بأخطائهم، يلقون باللوم دائمًا على الآخرين ليبرئون أنفسهم فلا تزعجهم ضمائرهم، وبالرغم من أنه لم يكن أبدًا الفارس الطيب إلا أنه خرق كل قوانيني وعبث بها، كان كالطفل الذي أمسك بصندوق ألعاب مرتب بعناية تامة ثم قلبه رأسًا على عقب في لحظة واحدة، كل ما لقنته لنفسي طوال سنوات هدمه وهج حضوره.

"أخبرنا الطبيب أن الطفل في وضعٍ غير طبيعي، أريدك معي وقت الميلاد رجاءً، إنها المرة الأخيرة أعدك".

"إنها المرة الرابعة يا عزيزتي، المرة السابقة أيضًا قلتِ إنها الأخيرة".

كادت تبكي وهي تُلح عليّ أن أسافر إليها، كل مرة أخبرها أني لا أحتمل ألمها ولا صراخها وقت الولادة، صحتها أضعف من أن تحتمل كل هذا، تبكي من الألم فأبكي أيضًا، ألعن زوجها ألف مرة، البنات الثلاث لم يشبعوا أبوته بعد.

"الأخيرة صدقيني أخبرنا الطبيب أنه ولد" قالت وهي تهمس.

لم تكن طقوس ولادتها فقط هي السبب هذه المرة، وإنما اعتيادي على الصباحات المشرقة، على الحضور الذي يطغي على الوحدة، على الدفء الذي يسد الثغرات التي صنعها الافتقاد على مدار سنوات، وعلى الونس الذي استبدلت به سقف غرفتي.

"إجازة؟" سألني بنرة يشوبها قلق.

"سأسافر لأحضر ولادة أختي الصغرى، أم لثلاث جميلات، ويستعدون لاستقبال ولد أخيرًا".

بدا أنه لم يهتم كثيرًا بما قلته لأنه سألني بجدية: "كم ستبقين معها".

"شهرًا"

قال بعصبية فيما يشبه التهديد: "بالتأكيد تمزحين، تغيبين شهرًا عن العمل؟!".

فقلت بهدوء بعد أن لاحظت لهفته المخبأة في حدته: "الأمر هام بالنسبة لي، إذا كانت قوانين العمل لا تسمح، سأقدم استقالتي، ربما أبحث عن عمل هناك، أحب بناتها كثيرًا، أحب رفقتهن".

تنهد بعصبية ووقع على الإجازة قائلاً: "إجازة غير قابلة للتمديد".

أصر أن يوصلني إلى المطار، تحدثنا كثيرًا وتذكرنا معًا سنواتنا الأولى وضحكنا على سذاجة خلافاتنا آنذاك، وقال فجأة بحزنٍ لم أراه فيه من قبل "لم تصري على البقاء".

فقلت له: "خذلتني واستغنيت عني" وأكملنا طريقنا بصمت.

أختي لا تتوقف عن الصراخ في بناتها، وعن الشكوى من آلام الحمل التي "هدت حيلها" كما تقول، أهز رأسي متفهمة أحاول تهدئتها، أبتسم للبنات ولمكرهن الذي يثير جنونها، أحاول أن أقنعهن بالرفق بآلام أمهن، أقنعها أخيرًا بأن تذهب لترتاح قليلاً وأننا سنقوم بكل ما تريد، البنات يستمعن إلي ويستمتعن معي بالقيام بكل ما تريد هي، أقسم المهام بيننا ونقيم مسابقة وجوائز لمن ينتهي أولاً، أستمتع برفقتهن، لكنني لا أحتمل وجودي معهن وقت طويل، آخر اليوم أكتشف أنني أفتقد الهدوء ووحدتي، حتى سقف غرفتي أفتقده، أشفق على أختي من الصخب المستمر.

زوج أختي يعمل طوال اليوم وحين يعود يبقى في غرفة مكتبه بالدور العلوي، نادرًا ما يجلس مع بناته، يقابل صخبهن بهدوء وابتسامات حانية وينسحب تاركًا المسؤولية كاملة لأمهن.

يتصل بي عدة مرات خلال اليوم، في الغالب لا أستطيع مهاتفته إلا مساءً بعد أن يخلدن للنوم، كل مكاملة يسألني: "قولتيلي هترجعي أمتى؟"، فأضحك وأخبره بموعد عودتي، في تلك المكالمات شعرت بأن غيمة الحنين تمطر شوقًا يزيل غروره ويذيب السنوات، عاد إلي ذلك الشاب الذي أحببته ببراءته وصدقه وحبه الجارف، عدنا مراهقين على مشارف الأربعين.

وحين عودتي كان في انتظاري حاملاً باقة زهور وسؤالاً أربكني أعادني للواقع، واقعه هو، لعائلة هو فيها الزوج والأب لولدين وفتاة، عائلة مستقرة حتى وإن لم تكن سعيدة.

كان علينا أن نتحدث كثيرًا، ونخبط رؤوسنا في الحائط ألف مرة، وأن نعاود الشجار من جديد، ونتبادل الاتهامات ثم نبكي معًا، كان علينا أن نصبح أقوى، نتعامل مع مشكلاتنا بنضج أكبر، أن نلتمس الأعذار لنغفر ونسامح، والأهم أننا كنا حريصين ألا نفترق مهما اختلفنا.

٢

كنت قد انتهيت للتو من مذاكرة الأولاد وذهبت لكي الملابس المكومة على أريكة صغيرة في ردهة بين غرف النوم، كان يتحدث بالهاتف آنذاك في إحدى الغرف، قمت بتشغيل المكواة واخترت من بين الملابس قميصًا بنيًا يخصه، فردته بإتقان على الطاولة الخاصة بالكي "قميص مسكين، لا يملك حق الشكوى، يستسلم بهوانٍ، يعرف أنه خُلِق من أجل رجل يرتديه لساعات ثم يتحرر منه، لم يكن يعرف تحديدًا لمن سيكون، لكنه اكتشف مع الوقت أنهم جميعًا حمقى، ورغم ذلك وجب عليه أن يحتمل تبعات مهمته، تنهكه دورات الغسيل المختلفة، يجب التأكد من نظافته قبل أن يواجه العالم راضيًا زاهيًا، يحتمل حرارة الطقس وبرودته، ويتعرض لضغط شديد ليبدو مهندمًا أكثر، ليعلق أخيرًا باتقان على شماعة لحين الحاجة إليه، مرة، مرتان في الأسبوع، أو ربما ينسى وسط الكثير، شهر أو أكثر، أصبح قديمًا".

"الأولاد فين؟" انتفضت حين سألني، كنت قد انشغلت بمصير القميص المسكين وغفلت عن وجوده.

"نايمين" رددت عليه.

ذهب للشرفة وأشعل سيجارة ثم أطفأها قبل أن يكملها، عاد إلي وقال: "أنا هتجوز".

احترق القميص المسكين، رفعت رأسي إليه ونسيت فوقه المكواة الملساء شديدة الحرارة، ففسد للأبد.

دائمًا ما كنت أشعر وكأنني "بطحة على راسهم".

كلما سمع أحد منهم حديث عن فتاة يشوب سمعتها شائبة، جروا علي ليتأكدوا أنني لا أفعل ما ينتقده الآخرون في إحداهن، بعد انتهاء دراستي الجامعية رفض أبي تمامًا أن أعمل قائلاً: "أنتِ مش ناقصك حاجة عشان تجري في الشوارع، تفضلي في بيتك معززة مكرمة لحد ما تروحي بيت جوزك".

ذات مرة جلست أتأمل فأر علق بمصيدة يدور بجنون حول حبة طماطم صغيرة وضعتها أمي كطعم له، يحاول إخراج رأسه من بين القضبان المعدنية دون جدوى، لم تكن بالطبع المرة الأولى التي أرى فيها فأرًا داخل مصيدة، لكن محاولات الفأر المستميتة جعلتني أشعر بأنني أكثر ضألةً منه، أنا لا أحاول أبدًا، أذعن دائمًا لقراراتهم، لم أكن أتطلع حتى لأن أتمرد، أعرف أني لا أستطيع تحمل تبعات التمرد والعصيان، سقف طموحي كان زوج لا يشبههم ولا أكون له "بطحة " يستجدي وجعها كلما همس أحد حوله، لذا لم يكن سهلاً أن أضحي بملاذي الوحيد وأرضى بأي رجل لا أثق به، أمي كانت تشتكي طوال الوقت "أقول للناس إيه، بترفضي ليه، مستنية مين، كلهم زي بعض".

يرد أخي قائلاً: "كل بأوان، نصيبها هيجيلها لحد عندها"، نادرًا ما كان ينصفني.

ذات يوم طرق باب غرفتي، فأذنت له بالدخول جلس بجانبي وقال بحنان مبالغ فيه: "يا حبيبتي أنتِ متعرفيش الشباب بيبصوا للبنات إزاي، وبيتكلموا يقولوا إيه على القهاوي، وإحنا في بلد صغيرة، بلاش ندي فرصة لحد، عشان خاطري وخاطر أبوكي"، تلك الجمل وما يشبهها تسبق عادة أمرًا يخصني أقره هو وأتى يبلغني به لأنفذه دون نقاش.

نظرت إليه وسألته: "وبعدين؟"، ليكمل تحديدًا ما طرق بابي من أجله.

"كانوا بيعاكسوا بنت لابسه بنطلون..".

ابتلعتُ غصتي ودموعي، وأومأت برأسي متفهمة ما أراد قوله، أيقنت منذ سنوات أن الجدل معهم لا فائدة منه، كرهت كل البلاد الصغيرة التي يجب أن تُراعى فيها العيون الوقحة والألسنة النمامة، يُراعى فيها الفضول أكثر من مراعاة الحق، يُراعى الخيال الخصب فتفشى أسرار البيوت، لتبور الشائعات في مهدها.

لم يكن لدي حلمًا سوى التحليق بعيدًا عن البلدة ومن فيها.

حين بدأت بالدخول على الإنترنت رافقتني أمي معظم الوقت، تجلس بجانبي تسألني عن كل ضغطة وكل حرف، تقول إنها سمعت عن "الشباب اللي بيضحكوا ع البنات ع النت".

فأسألها: "مش واثقة فيه؟".

فتُجيب: "الشيطان شاطر".

وكأن الشيطان وجِد فقط ليتربص بي وحدي.

ذات يوم اتصلت بي صديقتي، طلبت مني أن أزورها، كان عليها أيضًا أن تتحدث لأمي لتقنعها بتلك الزيارة، لا توافق أمي عادة على مثل هذه الزيارات، لولا أنها تعرفها وعائلتها منذ سنوات.

حين ذهبت إليها أخبرتني أن زوجها سيعود إلى مصر خلال شهر، وأن لديه زميل بالعمل يبحث عن عروس "جميلة ومؤدبة".

"سندبر لقاءً حين عودتهما".

"تقصدين، خارج البيت".

"يريد أن يراك مرة على الأقل، قبل المجئ رسميًا".

"تمزحين، كيف أفعل ذلك، ماذا سأقول لهم في البيت؟".

"لا تقلقي سأتصرف".

لكنني كنت قلقة بالفعل، لم أجرؤ يومًا على مقابلة شاب ولا حتى محادثة أحدهم محادثة عابرة، يرعبني مجرد تخيل ردة فعلهم في البيت.

للمرة الأولى أفكر برجل، صليت كثيرًا من أجل أن يكون مختلفًا عن الذين سبقوه، أثق بصديقتي، وأثق أنها تتفهم غربتي ومخاوفي، انتظرته شهرًا، يومًا بيومٍ وساعة بساعةٍ، كأنني أعرفه من قبل.

في الجامعة كانت تتعثر خطواتي ببعضها، أكاد أموت من الخجل إذا رفعت رأسي عن الأرض وصادفت نظراتي نظرات أحد زملائي، أتوارى بين زميلاتي البنات، أبتعد قدر الإمكان عن أي تجمعات بها شباب، أخاف أن يراني أحد من البلدة ويصور له خياله قصصًا يخبر بها أخي أو أبي.

بعد عودة زوج صديقتي بأسبوع كان لقائي الأول بصديقه، نظرتي الأولى له، كان من هؤلاء الرجال الذين تطغي جاذبيتهم على الجاذبية الأرضية، فتخف أرواح النساء في حضرتهم، يحلقن عاليًا، كأنهن نجمات يدورن في فلكه.

وتزوجته، فررت إليه، إلى ما كنت أحسبه وطنًا.

لم أحتج لوقت طويل لأكتشف وجهه الآخر، وجهًا غير مبالٍ بي، أدركت مبكرًا أن وجودي في البيت بأهمية الأجهزة الكهربائية التي لا غنى عنها، حاولت كثيرًا مواساة نفسي بمقارنة وضعي السابق مع وضعي الحالي، لكن ذلك لم يكن مجديًا، أيقنت أنني في كلا الحالتين لم أكن على سجيتي يومًا، وكعادتي آثرت الاستسلام، خاصة بعدما أنجبت ولدين توأم، انشغلت بهما طوال الوقت، واستهلاكا الكثير من طاقتي، كان أقصى ما يفعله معهما أن يلاعبهما بعض الوقت فما إن يبدأ أحدهما بالبكاء ينسحب ويتركهما لي.

كان يلومني دائمًا إذا ما لاحظ تقصيرًا ما في إحدى مهامي المنزلية، أعتذر بصوت خافت قائلة: "الأطفال".

فيجيبني بعصبية: "يجب عليكِ مراجعة أمك أو صديقتك، بالتأكيد لديهن نفس المهام".

أبكي بسبب حدته فيترك البيت بأكمله ولا يعود إلا في وقت متأخر.

كنت قد لاحظت تغيرًا ما طرأ عليه قبل عدة أشهر، انحسرت عصبيته قليلاً، بدا أهدأ من كل الأعوام التي قضيتها معه، في البداية فرحت لأنه توقف عن توبيخي بين الحين والآخر، لكن في لحظة ما أيقنت أنه لا يراني، ارتبت لهاجس وجود امرأة أخرى.

حدقت فيه طويلاً بعينين دامعتين، اقترب مني، نزع شاحن المكواة من المكبس، حررها من قبضتي، واحتضنني هامسًا لي: "لا علاقة لكِ بذلك، كل الأمور ستبقى هنا كما هي، أعدك"، لوهلة كدت أصدق حنانه المفاجئ، لكن تذكرت أخي كلما أمرني بفعلِ ما غمرني بحنان زائف، تمنيت لو أنني سكنت بين يديه وآمنت له ولكن كيف وهو يحتضنني فقط من أجل امرأة آخرى.

"لماذا؟" سؤال لم أنطق به، بالتأكيد كل الإجابات ستهين كرامتي، لذلك لم أعاتبه ولم أصرخ به، الأمر سيان عنده وافقت أو رفضت، لم يكن لدي بديل عنه، تركني أنسل من بين يديه، لم يحكم قبضته حولي، لم يتشبث بوجودي، ذهبت إلى غرفتي أغلقت الباب خلفي وانهرت، كنت على يقين من أنه محق في أن الأمور بيننا ستبقى كما هي.

٣

كنت أطالع السير الذاتية للمتقدمين لشغل وظيفة شاغرة في الفرع الذى أرأسه منذ عودتي إلى مصر، حين وقع نظري على سيرتها ولمحت اسمها وتأكدت من صورتها التي تأملتها كثيرًا، لامست جبهتها ووجهها وعينها بأناملي، ابتسمت لابتسامتها التي لم تغرب رغم مرور خمسة عشر عامًا.

أول ما بحثت عنه في بياناتها كان بالطبع حالتها الاجتماعية، لم تزل عزباء تعجبت، لكن خفقات قلبي المتسارعة هدأت قليلاً، كل بياناتها أمامي رقم هاتفها، بريدها الإلكتروني، وعنوان منزلها، لكني امتنعت عن المبادرة، قررت أن أنتظر حتى تأتي، وأكدت على السكرتيرة الاتصال بها لتحديد موعد لمقابلة عمل.

مر عامان على تخرجنا، ساءت بيننا الأمور كما لم نحسب لها، لم أحصل على عمل خلال تلك الفترة، أسهر الليل مع أصدقائي وأنام معظم النهار، أبي وأمي يوبخانني طوال الوقت، أسمعهما وأنا في حجرتي، أصطنع النوم، أتهرب من لومهما، تقول أمي: "يابني أي شغل والسلام، بدل ما أنت نايم طول النهار".

قبل أن أتخرج بالفعل عملت في كل الأعمال التي تناسب طالب لم يتخرج بعد، انتقلت من مهنة لأخرى، اكتفيت من الأعمال المرهقة، ورأيت أنني أستحق بعد كل ماعانيته وظيفة ملائمة، كنت أشعر بكل ما يدور بعقلها، عذرتها، لكني أيضًا كنت بحاجة لمن يلتمس لي عذرًا دون أن يلمس وجعي، دون أن يستخف بهواني، دون أن يمسك بمطرقة نصح ويقرع بها فوق يأسي، أردت أن يتسع براح أحدهم لضعف خبأته في لامبالاتي بهم، تفاجأت حين أخبرتها بقراري، ربما لم تكن تتوقعه أو ربما هذا ما أرادته، لم أفهم تحديدًا، لكن

إصرارها على الاستمرار تلاشى أمام إصراري على الفراق، تمنيت لو أنها ألحت أكثر وبكت لأجل أن نبقى، لكنها لم تفعل.

بعد عامٍ آخر ساءت فيه علاقتي بوالدي بسبب فشلي، ساعدني أحد معارفه بالسفر للعمل في إحدى دول الخليج، لم يكن ذلك بالأمر الهين لما كان يتطلبه من مبلغ كبير وجدنا مشقة في جمعه، فكرت بالطبع أن أحدثها لأخبرها بسفري لكن كان قد انقضى عام كامل لم يبحث فيه أحدنا عن الآخر، وخلال سبعة أعوام قضيتها مغتربًا لم أحصل إلا على إجازة واحدة لمصر، لم أكن مهتمًا بذلك كثيرًا، كان النجاح بديلاً جيدًا للوطن، والانشغال بديلاً لمحاولات البحث عنها، الإجازة الوحيدة التي كانت آنذاك اشتريت شقة جديدة لعائلتي ورددت إليهم ما اقترضوه لأجل سفري، قضيت أربعة أعوامٍ متصلة بالخارج وعدت نهائيًا لأرأس فرعًا جديدًا في مصر، وقبل عودتي حدثني صديقي في أمر زواجي، لم يكن لدي أسباب بعينها أخبره إياها حين سألني عن تأخر زواجي إلى ذلك الحين، غير أن الأمر برمته لم يكن يشغلني، ربما لم يكن لدي وقت له، وربما لم أقابل بعدها امرأة تخترق حواجزي وتقف على أعتاب روحي تجمع الأشواك وتنثر بذورها فتزهر أحلامي بها ومعها.

قال لي: "عروستك عندي جميلة ومؤدبة، ليك طلبات أكتر من كده؟".

كان طلبي الوحيد أن أقابلها مرة قبل التفاصيل الرسمية، كانت حقًا فتاة جميلة وخجولة وهادئة، ومازالت لكنها أيضًا امرأة ضعيفة ومستكينة لا تنتفض لكرامتها ولا تجادل لأجلها، امرأة ثلجية، فترت علاقتنا سريعًا وبدت كل المشاعر جافة وباردة، خاصة بعدما انشغلت بالأطفال، البنت الصغيرة تشبهها تمامًا، في صمتها واستكانتها، كلما تخيلتها في المستقبل بوهن أمها يجن جنوني.

بعد كل سنوات البرد أشرقت شمسها، في المقابلة الأولى لم نكن وحدنا، للحظات ظننت أنها لم تتعرف علي، بدت جادة ومتماسكة، تحدثت بطلاقة وثقة، إلى أن وجهت إليها سؤالاً صمتت لوهلة وارتجفت عيناها وعرفت من حركة أهدابها السريعة المتتالية أنها عرفتني.

حاولت ألا أبالي بها، أن أخفي لهفتي عنها، ولكن هيهات، الحقيقة كانت أنني لم أعد أرى في الدنيا سواها، حين سافرت إلى أختها كنت أذهب كل يومٍ إلى مكتبها متطلعًا أن أجدها هناك، أسألها كل مكالمة عن موعد عودتها وكأنها سترأف بي وتستعجله لأجلي، غيابها شهرًا كان كافيًا لأدرك أن وجودها لا غنى عنه، لذلك اتخذت قراري، كنت أعلم أن زوجتي لن تثير زوابع في فناجيل، فلا بديل لديها.

فاجأتها بالمطار بباقة زهور وخاتم، فهمت بالطبع ما أردته لكنها بدلاً من أن تقيم الدنيا فرحًا صمتت وغربت ابتسامتها ودمعت عيناها "تأخرنا كثيرًا" قالت لي.

أخبرتها أن كل الأمور ستكون بخير وبأنني أخبرت زوجتي.

- "وافقت؟".

- "لم تعترض، ستحزن قليلاً وستعتاد، مسألة وقت".

- "أناني"، اتهام جديد فجر جروحنا الخامدة.

٤

أوقفت موافقتي على مقابلة زوجته، لكنه رفض تمامًا، قال "لا دخل لها، الأمر يخصنا وحدنا أنا وأنتِ".

لكن ذلك لم يكن منطقيًا أو عادلاً، هي طرف لا يمكن تجاهله، الطرف الوحيد الخاسر، روح منكسرة، لا أستطع تخيل سعادتي معه دون وجعها، وجهان لعملة واحدة، مقابلتها كانت سترضيني، ستزيح بعض إحساسي بالذنب، ربما أردت أن أطمئنها، أهون صدمتها إن استطعت، لكنه لم يقتنع، لم يكن يأبه بها، أرقني برودة معها وتجاهله لمشاعرها، مزيد من الشعور بالذنب، وربما الشفقة، وبعد خلافات عدة لم أعد أحتمل غروره الذي يتعامل به مع كلتينا، أثق أنه يحبني، يظهر في لهفة عينيه وفي إصراره ألا نفترق من جديد، أنا أيضًا أحبه لكن وجودنا بجوار بعضنا البعض طوال الوقت أثار جنوننا، وعدته ألف وعد أني سأعود كنت بحاجة لمساحة أختلي فيها بنفسي، لبراح لا يحده عشقه ليل نهار، لأقرر ما أريده حقًا وما يمكنني تقبله، أوصلني للمطار، غضبه لم يدع مساحة لأي حوار، كنا بالفعل قد انتهينا من كل ما يمكن قوله ليشرح كل منا وجهة نظره التي تمسك بها، سافرت لأختي هذه المرة وأنا غير واثقة من الوفاء بوعد تداينت به له لأهرب منه ومني.

****

محاولات للفرار من شجرة صبار

تجلس بجوار جثته الممددة أمامها، تحاول أن تستوعب ما فعلته، رنين مذكر الهاتف يفزعها فتقع السكينة من يدها، تمسك الهاتف فتلطخه بالدماء، يذكرها بموعد تناولها أقراص منع الحمل.

"لم أعد في حاجة لذلك التنبيه، يكفي خمسة من الذكور، كيف سأتخلص من جثته، ربما أطهو أجزاءً منه للأولاد، يالها من فكرة شريرة تصيبني بالاشمئزاز، سأطهوه للقطط إذن، جارتي لا تتوقف عن الشكوى منهم، كانت قطة واحدة لكنها منحلة، هل توجد قطة منحلة؟ لم أستطع السيطرة على علاقاتها، وحده كان المسيطر دائمًا، الأولاد لا يستمعون إليّ، كيف سأبرر لهم اختفاءه، جدتي كانت تقص عليّ أبيات من الشعر كان جدي يُسمعها إياها، ربما لو قرأ لي الشعر يومًا ما كانت جثته الآن ممددة أمامي، تسيل الدماء على السجادة البيج، لطالما استفزني لونها السادة، تتشكل عليها وردة كبيرة حمراء وفراشات أيضًا، أصبحت سجادة مختلفة تمامًا، ستسألني جارتي متى اشتريتها وبكم ومن أين، ماذا لو لم يسخر من لون فستاني الجديد، لكنها لم تكن مشكلة الفستان فحسب، (عيناك ليالٍ صيفية) من أين يأتي لحنها الآن؟ أريد الذهاب إلى المطبخ لأطفئ البوتجاز وأعود، سأدفن رأسه بجوار البيت، وأزرع الصبار فوقه، يجب أن نُجمِل المدخل، كانت القطط تكرهه، يركلها كلما رآها، كيف هي العيون التي تشبه الليالي الصيفية؟ كانت عيناه حرائق لا تنطفئ تشعل كل ما لا يعجبه".

- "ماما".

تنتفض فور سماعها نداء ابنها الكبير، تدور بها الدنيا، ماذا ستفعل؟ تجري تجاه باب الغرفة لتغلقه بإحكام.

- "ماما أين أنتِ؟ حضر أبي، نريد الغذاء سريعًا".

- "حضر أبي".

لا تفهم ما يقول لعله يكذب لتسارع بتحضير الغداء، تنظر للجثة لا تجدها، ولا أثر للوردة الحمراء، حتى الفراشات طارت، الهاتف نظيف تمامًا، ينادي الأولاد من جديد، تلبي نداءهم، وتخرج إلى الصالة، تجده يتوسط مائدة الطعام، ومن حوله أولادهم الخمسة، نظراته تحرقها كالعادة، تفر مذعورة إلى المطبخ، تحضر الطعام وتنقله إليهم صحنًا وراء الآخر وحدها، لا يتحرك أحد منهم لمساعدتها.

يسأله الصغير: "هل أحضرت لنا الشيكولاتة؟".

ينظر إليها وهو يجيبه: "نعم الكثير منها وأحضرت لكِ هدية".

يُهيأ لها أنها لم تسمعه جيدًا فتنظر إليه متسائلة، فيقول: "أحضرت لكِ حناء".

لم يحضر هدية من قبل، تتعجب لتلك الحناء التي أحضرها، لا تستخدمها ولا تحب رائحتها.

تذهب إلى المطبخ لتغسل الصحون، يسألها إذا كان ثمة مهام أخرى يجب أن تنهيها، تخبره عن الملابس التي ترقد في الغسالة وغيرها يجب أن تجمعها.

"فلتنهي كل شيء إذن لنحتفل بالحناء".

نبرة صوته واهتمامه المفاجئ يصيباها بالقلق، تُنهي أعمالها وتذهب إليه، يُمسك يدها ليبدأ بها ويرسم عليها دببة صغيرة، وعلى قدميها أسماك، ملأ وجهها بالنجوم، صبغها جميعًا بالحناء، ثم نادى على الأولاد، أثارتهم رسوماته البنية المتقنة، قال لهم بأداءٍ مسرحي وهو يشير بيده عليها: "ليس هناك ألذ من الشيكولاتة"، بدأوا يلتهموها بنهم، لُطخت وجوههم وأيديهم.

كان يقهقه عاليًا وهو ذاهب صوب المطبخ، أحضر كوبًا فارغًا وطلب منهم أن يفسحوا له مكانًا ليملأه بمشروب الشيكولاتة.

"لا أعرف كيف أقنعهم أن يفعلوا بي ذلك، يلتهمونني بشراهة، أصبحت غير قادرة على الحركة، أتابع سيل بني على سجادة الصالة يصنع خطًا متعرجًا يشبه جذع شجرة، سيقنع الجميع أنني انتحرت، هو قادر على ذلك، سأموت قبل أن أعرف كيف هي العيون التي تشبه الليالي الصيفية، سيتزوج بعدي بالتأكيد بامرأة عاهرة تتحرش بأولادي، سيخبر جارتي أنني اشتريت السجادة ذات الجذع قبل انتحاري، ربما اكتشف السكين الذي خبأته بحجرة النوم، أنا منهكة تمامًا، القطط هي الأخرى تنهشني، في مراهقتي كانت قصص حبي الوهمية ما بين باتمان ودراكولا، دراكولا كنت بطلته التي تجعله إنسانًا طيبًا، فشلت لم أستطع أبدًا ترويض الوحش بداخله، أراه طيفًا بعيدًا يجلس على الكرسي الهزاز ممسكًا بمشروبه البني يراقب الأولاد باستمتاع، متى كبرت أذناه هكذا، ربما نبت له قرنان.

"شجرة الصبار تلك تضايقني، كلما حاولت روحي التحليق عاليًا آلمتها الأشواك ومنعتها من الفرار".

****

الفهرس

مقعد وحيد 9
الفرار من كابوس امرأة كانت أنا.. 13
انصهار 23
تانجو 27
ربما 33
ساعة واحدة 37
أوجاع بالنعناع 43
التفاحة لم تكن فاسدة 51
الأمنيات الأخيرة لا تكتمل 55
حواديت 61
التهام 65
بياض يشوبه الدخان 69
خوف 77
بعض الحلوى تثير الدفء 81
دائرة الصفر 91
على وشك بكاء لا يحدث 95
فاصل من الماضي 101
تحت سقف الخذلان 107
محاولات للفرار من شجرة صبار 129

عن الكاتبة

سارة طوبار

من مواليد محافظة الدقهلية

صاحبة مدونة محاولات للبحث عني

صدر لها كتاب إلكتروني بعنوان "ذاكرة شرقية"

لينك تحميل الكتاب

http://www.mediafire.com/?cnpdvolqlwzfpb6

كما أنه متوفر ككتاب صوتي على تطبيق "اسمع كتاب"

للتواصل على الفيس بوك

https://www.facebook.com/sara2bar